تعظيم سلام!

مجموعة قصصية

نجلاء محمود محرم

الغلاف واللوحات الداخلية للفنان

محمد عسل




فليُلقِهَا بحجر !

لم يكن انتقال أسرة " أمين مفتاح " إلى سكنها الجديد بالشئ العادى الذى يمر على الجيران دون أن يسترعى انتباههم .. فقد وصلت السيارة التى تحمل الأمتعة عصر يوم جمعة .. وانتشر أولاد " أمين " على السلم يتصايحون .. ويطلعون وينزلون .. ويحملون الكراسى والحلل وألواح الأسرة والوسائد .. محدثين جلبة عظيمة أيقظت النائم وأنعشت الكسلان .. بينما كان هو يقف أمام العمارة .. ينادى على زوجته كل حين ليسألها : هل تريد تلك القصرية المشروخة أم يرميها ؟ والحلة السوداء التى أحرقت فيها سكر الكنافة هل مازالت تصلح للاستخدام ؟ ويطلب منها أن تغير ملابس الولد الصغير لأن هناك رائحة كريهة تفوح منه ! بدأت الرؤوس تطل من النوافذ .. والمرافق تتكئ على أسوار الشرفات .. والأعين ــ كل الأعين ــ تحمل تعبير الصدمة .. إلا أعين أسرة " أمين مفتاح " التى كانت نظراتها تفيض بشراً خاصة إذا تلاقت مع نظرات الجيران الجدد !

استغرق تفريغ سيارة " العفش " أكثر من ثلاث ساعات .. فأشياؤهم كلها وُضِعَتْ فُرادى .. ولم تعبأ لا فى كراتين ولا فى أكياس .. حتى الملاعق والملابس وأقلام الأطفال وعلب الدواء بُعثِرَت كالفلفل فوق اللحم المفروم !

ولما تم إفراغ السيارة وأُغْلِقَ الباب على السكان الجـــدد .. كان الفارق بين حالة الابتهاج والارتياح فى شقة " أمين مفتاح " وبين حالة الوجوم والتوجس فى باقى الشقق كبيرا للغاية .

تجنب السكان جارهم الجديد .. لكن آذانهم تحولـــت إلـــى أطباق تستقبل أى صوت يصدر مـــن شـــقته .. فيتســـمعون .. ويتغامزون .. ويضحكون .. ويلتقون فى اليوم التالى ليحكـــى بعضهم لبعض ما سمعوه وهم مندهشون ..

وحين أرسل أمين مفتاحَ إلى جاره الملاصق له فى الشـــقة يخبره بأنه يريد أن يزوره زيارة تعـــارف .. ضـــرب الجـــار أخماسا فى أسداس .. ونصحته زوجته بأن يرقد فـــى الفـــراش ويمتنع عن الكلام وحين يأتى الزائر تخبره بمرضـــه المفـــاجئ فلا يكون هناك مجال لتعارف وينصرف دون أن يحملهم مشـــقة تحمل زيارته .. وجاء الزائر على وجهه ابتســـامته الهادئـــة .. وانصرف سريعا بعد أن تمنى لجاره الشفاء .. وانتابت الجـــار حالة ابتهاج بنجاح الخطة وجلس مع زوجته يضحكان بعـــد أن انزاح هذا الكرب .. ولم يتحوطـــا وتركـــا النوافـــذ مفتوحـــة والأصوات تنتقل عبر منور العمارة مـــن شـــقة لأخـــرى فـــى وضوح تام ..

رنَّ جرس الباب وفتحت الزوجة فوجدت " أمين مفتـــاح " أمامها .. بُهِتَتْ وتلعثمت .. لكنه قال لها بابتسامة وبساطة :

ـ كان يكفى أن تعتذرا عن اســـتقبالى .. أمـــا أن تكذبـــا وتتندرا بنجاح خطتكما بجوار نافذة المنور فذلك ســـلوك نـــاس أغبياء ..

وعرف الجيران ما جرى .. ولم يحاول " أمين مفتاح " بعد ذلك أن يزور أحدا منهم .. وظل على صراحته الغريبـــة فـــى الحديث معهم حين يقابلهم على السلم .. لدرجة أن جـــاره فـــى

الشقة التى تعلو شقته دخل على زوجته ودمه يغلى لِمَا قاله لـــه " أمين " على السلم .. لكن زوجته غرقت فى الضحـــك حتـــى دمعت عيناها .. وسألته لتتأكد :

— أوَ كان أطفاله حقا يظنون أننا نربى عجلا ؟

رمقها زوجها بعين ساخطة .. لكنها تجاهلت نظرته ..

— سبق أن نبهتك بأنك تتجشأ بصوت كخـــوار العجـــول حقا !

صرح " أمين مفتاح " لجيرانه بكل مايجيش به صـــدره .. فأخبر جاره بالطابق الأرضى أن عليـــه أن يشـــترى غيـــارات داخلية بدلا من تلك الممزقة التى تنشرها زوجته على الحبل فى الشارع ! وقال لساكن الطابق الخامس أن زوجته لاتشـــتم أولاده إلا بعيوبه .. وأنه لايراه حمارا ولا غبيا إلى تلك الدرجة التـــى يصير بها سبة لأبنائه ! أما ساكن الطابق الأول .. فقد صرح له " أمين " بأن السبب فى أن مالك السيارة الزرقاء يتجاهله كـــل يوم لكى لا يوصله إلى العمل رغم أنهما زملاء هو أنـــه ثقيـــل الظل .. ونصحه بأن يخفف من ثقل نظراته وأن يصافح النـــاس بحرارة وألا يرفع " بنطلونه " إلى صـــدره هكـــذا وألا يلبـــس الأحذية البيضاء !

أصبح لقاء " أمين مفتـــاح " كارثـــة يفـــر منـــها جميـــع الجيران .. وانعقد مجلس المتأذين منه لمناقشة الوضع واتخـــاذ التدابير اللازمة وكانت تلك المرة الأولى التـــى يجتمـــع فيـــها السكان بل إن منهم من لم يكن قد رأى بعض جيرانـــه بعـــد .. وتوالت الاقتراحات :

— ندق على سقف شقته وعلى جدرانها حتى يضج

— نلقى فى منور العمارة بالقمامة والحيوانات الميتة

ـ نرفع صوت المذياع فلا يستطيع نوما ولايستطيع أولاده أن يذاكروا

اقتراحات هزيلة .. تؤذيهم كما تؤذيه

لكن الجار الخبيث تنحنح وطلب إليهم أن يسمعوه .. اتجهت إليه العيون المتعطشة للانتقام .. فسألهم :

ـ ما الذى يضايقكم من " أمين مفتاح " ؟

دهشوا .. ثم انفجروا فى صوت واحد يستنكرون سؤاله .. قال :

ـ حاربوه بمثل سلاحه ..

ران صمت على المستمعين فاستكمل :

ـ تصيدوا له المعايب .. اجعلوا آذانكم وأعينكم رادارا يرصد كل تصرفاته .. ولابد ستجدون ما تهددونه وتحرجونه به ..

تفرق المؤتمرون بعد أن اتفقوا على خطة المراقبة .. وحددوا المواعيد .. وطرق الاتصال .. وبدأ تنفيذ المخطط .. وصارت معظم حركات وسكنات وكلمات أسرة " مفتاح " مرصودة من جيرانه .. كان هناك من يتبعه وهو ذاهب إلى عمله .. ومن يحوم حول مدرسة أطفاله .. ومن يجمع أخبار زوجته .. وكان " أمين مفتاح " يرى أطياف جيرانه المختبئين خلف خصاص النوافذ يتسمعون عبر المنور ما يدور فى شقته .. وأخبرته زوجته أنها ترى من عقب باب الشقة ليلا أقداما تروح وتجئ و تمكث بعض الوقت .. وقالت له أنها خائفة .. تربصا ليلا حتى ظهرت الأقدام خلف باب الشقة ففتحاه فجأة فوقع جارهما ثقيل الظل قاعدا مادا ساقيه فدخلت قدماه بالحذاء الأبيض من باب الشقة .. مرّتْ لحظات دهشة حدقت فيها الأعين بجمود .. ثم نهض الجار صاعدا السلم .. وأغلق الزوجان بابهما ..

في الصباح التالى كان " أمين مفتاح " واقفا في انتظار جاره ثقيل الظل .. وما أن رآه نازلا حتى توجه إليه وقال له :

ــ هذا الصوت الذى تسمعه ليلا هو صوت ماكينة " التريكو " التي تعمل عليها زوجتي .. فالحياة صعبة ولابد من توفير نفقات الأطفال ..

واصطحبه " أمين " إلى شقته وفرَّجَهُ على الماكينة وأسمعه صوتها !

وحين انعقدت جمعية المتأذين من " أمين مفتاح " وأذيع سر الأصوات الغامضة التى تنبعث من شقته ليلا .. خاب أمل المجتمعين لأن الأصوات ما كانت تصدر عن مطبعة لتزييف النقود أو الأوراق الرسمية أو أى شئ مما كانوا يتمنون !

واستمرت طريقة " أمين مفتاح " كما هى .. ولم يتردد في أن يخبر إحدى جاراته بأن " شبشبها " الذى تلبسه وهى راجعة كل يوم قرب الفجر يدق على السلم وأن زوجها قد يصحو على هذا الصوت .. وأنه يجب عليها وضع قطعة فلين في طرف كعبه العالى ما دامت تحرص على ألا يتنبه زوجها لخروجها بعد نومه !

لكن الجار الأعزب الذى يحمل حقيبة سوداء ويضع على عينيه نظارة سوداء لم يكف عن مراقبته المفضوحة .. واشترى نظارة معظمة وصار يلاحقه باستمرار ..

وفوجئ السكان بورقة بيضاء ملصقة فى مدخل العمارة تحمل توقيع " أمين مفتاح " مكتوب فيها أنه يرجو جاره صاحب النظارة المعظمة ألا يتجسس عليه بواسطتها .. لأنه هو وزوجته وأطفاله ليس لديهم ما يكفى من الملابس المنزلية وقد يسوؤه ما يراه بنظارته !

وبتعاقب الأيام واستمرار المراقبة أخرجت زوجة " أمين مفتاح " موقدها أمام باب الشقة وصارت تطهو الطعام أمام الصاعد والهابط .. وفى كل يوم يعلق زوجها ورقة عليها خط سيره وما حدث له فى اليوم السابق .. حتى أطفالهما كتبوا بخطهم الصغير محتويات الشطائر التى فى حقائبهم ودرجاتهم الدراسية وألوان ملابسهم الداخلية !

وفوجئ ساكن الطابق الخامس " بأمين مفتاح " يخبره بأنه أدرك السبب فى أن زوجته تعتقد أنه حمار .. وهذا لأنه حين اختلس مرتبات الموظفين من خزينة الشركة وادعى أنه هوجم .. وافتعل شريكه به اصابة .. ضحك عليه هذا الشريك واستأثر لنفسه بالمبلغ المسروق كله .. وأوصاه " أمين " بزوجته وبأن يلتمس لها العذر .. فهذا فعلا غباء حميرى صرف !

كثرت الملصقات وصارت تغطى كل يوم مدخل العمارة بالكامل .. وتُنْزَعُ فى اليوم التالى لتلصق غيرها .. وعرف الجميع كل ما يدور فى شقة " أمين مفتاح " .. فى غرف النوم وفى الحمام .. وعرفوا مايحدث فى عمله وفى مدارس أولاده .. وماذا اشترى وكم دفع .. وكيف أهين وكيف وقع وكيف جُرِحَ اصبعه .. وأن القشرة انتشرت فى شعره .. وأن الولد الصغير مصاب دائما بالإسهال .. وأن زوجته لديها تشوه فى فخذها من حرق قديم بماء سلق المكرونة ! بل لقد بدأوا يؤرخون لماضيهم وماضى أسرهم .. ولم يتركوا سقطة قديمة أو حديثة إلا وذكروها .. وصار الناس يأتون من العمارات المجاورة ليقرأوا ويندهشوا ويضحكوا .. ومنهم من ينتظر فى الشارع ليرى الأسرة العجيبة أو أحد أفرادها !

لذلك انتاب الجميع ذهول شديد حين أصبح صباح ولم يجدوا أى ملصق على جدران المدخل ! ولولا أنهم

رأوا بالنظارات المعظمة وسمعوا بالآذان الملصقة على باب الشقة وأحسوا بنفس الإحساس الثقيل يجثم على نفوسهم .. لظنوا أنهم رحلوا !

واستمر المدخل خاليا من الملصقات .. ولم يخرج أحد من أسرة " أمين مفتاح " .. وبدأ الجيران يظنون أنهم قد أقلعوا عن عادتهم الغريبة ..

حتى جاء الصباح الذى غُطِّيَتْ فيه جدران المدخل والدور الأرضى من الخارج جميعها بملصقات عُنِيَ بتخطيطها وتلوينها وعنونتها .. بل وزُيِّنَ بعضها برسوم وصور توضيحية وخرائط ..

عن الجار الذى أجبر زوجته على بيع كليتها وتزوج بثمنها .. والجارة التى تذهب بعد نوم زوجها للعازب ذى النظارة السوداء .. والثانية التى قضت ثلاث سنوات فى سجن القناطر لإدانتها فى قضية سرقة مولود من المستشفى الذى تعمل فيه .. وساكن الطابق الخامس الذى تنكر لأبيه وأمه المحتاجين وغيَّر سكنه لكى لا يعرفا طريقه ويوجعا رأسه .. والمختلس .. والشاذ .. والراقصة السابقة .. والمرتشى .. والمدمن و .. و .. و ..

وجرى الناس إلى شققهم ..
وأغلقت الأبواب ..
وسمع بكاء وصراخ ...
وخرج من يجرى إلى الشارع ..
ودخل رجال شرطة ومأذون وأمهات تبكى وآباء مهمومون وقساوسة ..

وارتاعت حياة الجميع ..

بينما كانت أسرة " أمين مفتاح " تتناول غداءهـــا وتتفـــرج على التلفاز !

يناير ٢٠٠٠

اللعنـــة

انتهى الأمر بنبذ الطفل الأسمر النحيف ذى الشعر الأجعـد الذى يميل إلى رفع صوته .. وأجلس فى آخر مقعد فى حجـرة الدراسة .. فى بداية عزلته كان زملاؤه يلتفتون إليـه مواسـين بنظراتهم .. أما الآن فقد نسوه .. وتذكروا فقـط أن يخفضـوا أصواتهم .. وصار النحيف يجلس وحيـدا يتابعـهم .. ويتـابع المعلمة التى نفته حين أغضبها !

قالت المعلمة للأطفـال أن الطفـل السـمين أيضـا بـدأ يضايقها .. عيونهم المستديرة سألتها : " كيف يضـايقك ؟ " .. قالت : " ألا تسمعون صوت أوراقه التـى تقرقـع ؟ " .. كـل الأطفال صاروا يقلبون أوراقهم بحرص شديد .. حتى الطفـل السمين .. لكن المعلمة كانت تَسُدُّ أذنيها لتحميـهما مـن حـدة صوت ورقته !

وانتهى الأمر بنذ الطفل السمين فى آخر حجرة الدراسة..

لما جاءت الطفلة ذات الجدائـل السـوداء للفصـل لأول مرة .. انشرح صدر زملائها .. عيناها الباسـمتان وعدتـاهم بأفانين اللعب ! أخرجت من حقيبتها نوى البلح وحبات الـدوم .. شكلت بها أشكالا جميلة .. وجوهاً .. وعيوناً .. تَحلَّقَ الجميـع يتصايحون ..

ـ حبة الدوم لأعلى قليلا ..
ـ لا لا .. هى مضبوطة هكذا ..
ـ اجعلى نوى البلح نقوشا على ثوبها ..
ـ بل اجعليه قرطا لحبة الدوم ..

كثرت حبات الدوم .. ونوى البلح والمشمش والزيتـون .. ولما تراصت حبات الدوم ذات يوم مكونة جسـماً مكتـنزاً .. صاح الأطفال ضاحكين ..
ـ هو الولد السمين !
ـ نعم هو السمين بعينه ..
ـ كنا قد نسيناه !
رفعت ذات الجدائل عينيها عن تكوينها التشكيلى ..
ـ من هو الولد السمين ؟
ـ هو الولد الذى تقرقع أوراقه فتصم أذنى المعلمة
ـ هناك .. فى آخر الحجرة
نظرت ذات الجدائل إلى حيث أشاروا فلم ترَ إلا سـديماً .. مظلما .. فاستكملت لعبها ..

حقائب الأطفال مليئة بالحصى وحبـات الثمـار الجافـة والنوى .. وقلب ذات الجدائل ملئ بالمشاعر والرؤى
ـ هيا نُكَوِّنُ الولد السمين مرة أخرى ..
لما كونوه لم يجدوه سمينا كما كان .. قالت ذات الجدائل :
ـ هو جوعان .. منهك ..
صمت الأطفال وامتدت بعض الأنامل الصغيرة البضـة .. تلمس حبات الدوم فى إشفاق ..
المعلمة تنظر نحوهم .. وتسأل الصغيرة :
ـ أين رأيت الولد السمين ؟

فتخبرها الصغيرة بأنها تصنع تلك التكوينات مـــن وحـــى خيالها ..

انزعج الأطفال لما رأوا على وجه الولد الذى كان ســـمينا والذى كونته الصغيرة بتشكيلاتها الفنية دمعتين ..
ـ لماذا وضعتِ الدمع على خديه يا ذات الجدائل ؟
= لأنه فعلا على خديه ..
امتدت أنامل تمسح دمعه الدائم ..
ـ هو مجرد صورة ..
= ماذا تقصدين يا ذات الجدائل ؟!
ـ الصورة تماثل صاحبها ..
نظر الجميع إلى السديم المظلـــم فـــى نهايـــة الحجـــرة .. وأطرقوا ..

لما كونت ذات الجدائل بحبات التمر والزيتـــون تشـــكيلا جديدا .. صاح الصغار :
ـ هو الطفل الأسمر النحيف ..
ـ لكنه صار أكثر نحافة !
ـ هل هو نائم ؟
هزت الصغيرة رأسها نفيا .. وعضّتْ شفتها فى أســـىً .. مدَّ الصغار كفوفهم نحوه ..هو حار جداً .. محموم !
ـ ما به ؟!
صمتت ذات الجدائل وانحدرت على خدها دمعة ..

وقفت المعلمة ترنو إلى حبات التمر ونـــوى الزيتـــون .. بإشارة من أصبعها تبعتها ذات الجدائل ..
ـ أهذا أيضا من وحى خيالك ؟

= هى تكوينات أجدها فى داخلى ..
ـ أنت كاذبة !
برقت عينا ذات الجدائل .. ومسحت آ ثار دمعة كانت قد سالت من قبل .. دخلت المعلمة حجرة الدراسة تتبعها ذات الجدائل ..
ـ هى (وأشارت بازدراء نحو الطفلة) كاذبة ..
العيون الجميلة تتجه نحو ذات الجدائل .. فتلتقى النظرات .. همهمات .. وكلمة " لا " تتردد فى خفوت ..
ـ أنا لا أكره إلا الكذب ..
الألسن الصغيرة تتمتم : وتكرهين قرقعة الورق .. والصياح .. والتشكيلات الفنية ..
المعلمة تخرج من جيبها خرزات زجاجية ملونة براقة ..
ـ انظروا .. من يخاصم الكاذبين سيفوز بتلك الحبات الجميلة !
وتخشخش بحبات الزجاج ...
العيون الجميلة تتعلق بالحبات الملونة ..
ـ تلك الحبات تصنع أشكالاً رائعة ..
الطفل الذى لا ملامح له .. مدّ يده للمعلمة متمتما :
ـ أنا سأخاصم الكاذبين !
حمل حبات الزجاج وعاد فى اضطراب إلى مقعده ..

صارت ذات الجدائل تشكل وحدها تكويناتها دون أن ينظر إليها أحد .. فالأطفال الآن لا يلتفون حولها .. ويترددون قبل أن يكلموها .. وصار لدى معظمهم حبات ملونة .. لكن ملامحهم شاهت .. ثم ذابت .. ولم تعد ذات الجدائل تميزهم عن بعضهم ..

امتلأت أرضية الحجرة بتشكيل فنى للولد السمين وقد صار نحيفاً .. وبتشكيل فنى للولد الأسمر وقد سُـجِّىَ علـى ظـهره مغمضا عينيه .. وذات الجدائل إلى جوارهما على الأرض فـى تشكيل ثالث .. تنحدر دموعها فى عجز ..

امتدت النظرات عن بعد .. ثـم اقـتربت الخطـوات .. واكتملت الحلقة حول ذات الجدائل .. وسُمِعَ صوت يقول :

ـــ لا .. لن تكونى معهما !

وصوت ثان وثالث .. وتتـابعت الأصـوات .. وجـاءت المعلمة .. وصاح صوت :

ـــ خرزاتك باردة !

وتقافزت الخـرزات الملونـة علـى الأرض .. وعـادت الملامح للوجوه .. وتشابكت الأيـادى الصغـيرة .. ووقفـوا ينظرون للسديم المظلم فى تحفز !

أكتوبر ١٩٩٨



انسحاب

سـألت الشـقراء فى شـقاوة :
ـ القلب أهم أم المخ ؟
دارت الكاميرا لتواجه الطبيب الذى أجاب :
ـ القلب طبعا .. أكد جالينوس ذلك منذ القدم ..

أكملتُ ارتداء ملابسى ولم أقـوَ على تجـهيز إفطـار .. السـرير " منكوش " .. " البيجامة " قطعـة منهـا علـى السـرير والثانيـة على الأرض .. الصحف ملقـاة فـى كـل مكـان .. لم أجد المشـط .. عثرت على مفتـاح الشـقة خلف مصراع الباب .. نزلت درجات السلم فى ثقل .. تذكـرت جهاز التليفزيون المفتـوح .. صـارعت خشـونة المفـاصل وصعدت ما نزلته .. فتحت باب الشـقة .. الطبيـب مـا زال يؤكد قول جالينوس .. وأنا أضغط زر الإطفاء كان قد انتقـل إلى قول الرسـول : " فى الجسـد مضغة إذا صلحـت صلـح الجسـد كله "

بعد عدة أمتار شعرت بإرهاق .. توقفت لالتقاط الأنفاس .. قسَدَتْ " المضغة " .. اسـتوقفت سـيارة أجـرة .. البنـك

مزدحم .. هكذا دائما فى أيام صرف المعاشـات .. صدمنـى شـاب بمنكبه .. التقطنى آخر قبل أن أسـقط .. انسـحبت مطأطئا وهو يعتذر .. موظف الشـباك شـاب هـادئ وديـع النظرة يحاول أن يحتمل سخافاتنا .. على الشباك المجاور لـه سيدة جميلة تبخل على الطابور الواقف أمامها بنظرة من عينيها وتفيض على الأوراق التى بين يديها بالنظرات .. سألت نفسى : " الشـباب أهم أم الشـيوخ ؟ " سـندنى الشـاب ذو المنكـب القوى قبل أن أسـقط ثانيـة .. أجلسنى على مقعـد برتقـالى فاقـع .. أمر لى بكوب شـاى .. اعتذرت عن قبوله

ــ فسـدت المضغة يا بنى

جلس إلى جوارى لافـا ذراعه حول كتفى ..

ــ كوب ماء يكفى يا ولدى .. لا تقلق

أوصلنى إلى السـيارة الأجرة .. أوصى السـائق الشـاب بى ..

ــ إصعد معه حتى باب الشـقة

أنزلنى السائق قبل البيت بعـدة أمتـار لكـى لا يضطـر للدوران من آخر الشارع .. تمكنت مـن الوصـول للشـقة بسـلام .. ببدلتى تمددت على الفراش .. بحثت عـن طـرف اللحـاف فلم أجده .. جذبته فوقى مبروما .. رحمة الله عليها .. كانت تخلع عنى ملابسى وتفرد فوقى الغطاء .. فى جنازتـها سـقطت للمرة الأولى .. تسربت الساعات وأنـا ملقـى فـى فراشى .. النهار بدأ سـاعات احتضاره .. ثقيلـة سـاعات الاحتضار وطويلة .. خيم الظلام .. اسـتطاع الليل أن يفـرد لحافه على الدنيا بإحكام .. قلت ضوضاء الشـارع .. الدخول فى النهاية ليس جميلا .. سـألت نفسى : " النهـار أهـم أم الليـل ؟ "

دق جرس الباب فى الصباح الوليـــــد .. كيــس الخــبز والجريدة وكيس اللبن معلقـــون الآن علـــى مقبـض البـــاب الخارجى .. إذا نهضت من فراشى سأدخلهم .. ماذا ســيحدث لهم وهم معلقون هناك ؟ تذكرت أننى لم آكل شـيئا بـالأمس .. علب الدواء ذكرتنى بالطعام .. رحمة الله عليها .. الطعام مــن يديها كان هنيئا .. اهترأت بدلتى التى نمــت بــها .. فتحـت الباب .. القطط بقروا كيس اللبـــن فانســـكب علـــى الخــبز والجريدة .. غمســت البقسماط فى الشاى بدون لبن .. فتحــت علبة الدواء .. فارغة هى ..

ــ يا سعدون

صعد البواب محييا ..

ــ علبة الدواء فارغة ياسعدون ..

هبط الســلم قابضا علـــى الجنيــهات العشـــرين التـــى ســيضع منها أكثر من ثلاثة جنيهات فى جيبه .. علبة الـــدواء الجديدة زاهية متماسكة .. العلبة القديمـــة باهتـــة متآكلـــة .. اشـــترتها زوجتى قبل وفاتهـــا المفاجئة بيوم .. ربما ما تـــزال تحمل بعضا من عبيرها .. مثل كل مـــرة وضعــت شـــرائط الحبوب الجديدة فى العلبة القديمة .. لكن إلى متى تتحمل العلبـة القديمة الاســتعمال والفتح والقفــل ؟ سألت نفسى : " الجديـــد أهم أم القديم ؟ "

على صوت عبد الوهاب .. أخذت أتحرك فى الشـــقة .. ألملم الصحف المبعثرة وأجمع الملابس المســتعملة .. انتظـــم شـــكل البيت .. أدرت قرص التليفون .. لما جـــاءنى صـــوت زوجته تذكرت أن " حســين " صديقى مات فى العام الماضى.. بدأت أبحث فى دفتر التليفون .. حسين مات .. نظمى مـــات ..

شــاكر ؟ نعم شــاكر .. على الطرف الآخر جاءنى الصـــوت متهدجاً :

ـــ أبى فى الرعايــة المركزة منذ أربعــة أيــام ..

ثقلت الســماعة في يدى .. شاكر يصغرنـــى بعــامين .. موفور الصحة .. وخزٌ فى المضغة ..

قابلت ولده ..

ـــ البقاء لله يا ولدى ..

المشــيعون كثيرون .. جميعـــهم زمـ . أولاد شـــاكر وأصدقاؤهم .. لا أحد من زملائى أنا وشــاكر .. وخـــزٌ فـــى المضغة .. كان شــاكر مرحا .. يتـــهادى إلـــىَّ صوتـــه مـــن الماضى ..

ـــ خذ من عيالى واحدا لتعرف أن الله مَـــنَّ عليـــك بعـــدم الإنجاب !

الأولاد ومعارفهم يثلجون صدر شـــاكر الميـــت .. أنـــا أعرف هـــذا .. كان يحب أن يُحتفى به .. أنـــا الوحيـــد فـــى الجنازة الذى جاء لشاكر .. الكل جـــــاء لأولاده .. ســـألت نفسى : " الحى أهم أم الميت ؟ "

تمددت فـــى فراشـــى .. التليفزيـــون يســـكب صـــورا وأخبارا .. تناولت قرصا آخر جديدا من العلبة القديمة .. هـــل ســـمعت نقراً على الباب ؟ فتحت الباب .. لفحتنى برودة ليـــل الشتاء .. عدت لأتابع التليفزيون .. مكوك الفضـــاء الأمريكـــى يرســـل صورا من المريخ .. العلماء يؤكدون أن الحياة علـــى المريـــخ كانت موجودة يوماً ما .. هناك مجرى نهر جـــاف .. نهر عريض .. له فروع .. و وادٍ عظيم .. ووجود الماء يعنـــى وجود الحيـــاة .. قال العلماء أن هذه قاعدة لاســـتثناء منها ..

لكن النهر الآن جـــاف .. لاميـــاه فيـــه ..
مجرد أخدود عميق محفور فى الصخور ..
و الظلام البـــارد يملأ مجراه ..

وضعتُ اللحاف المتكــور على جســــــدى .. وأغمضـــتُ عينىَّ فى استســـلام .

فبراير ١٩٩٨





طرطور على رأس الملك

أبلغهم الملك العظيم باعتزامه الرحيل
صدر صوته مخنوقا مكتوما .. قال أنه لم يعد يطيق البقـــاء .. نكأ حديثه الجراح .. ما يحدث صار فوق الاحتمـــال .. ولكــن كيف الرحيل وقد سُلِبَتْ الأجساد القدرة علـــى الحركـــة .. وإن كانت قد احتفظت بالقدرة على البقاء ؟

وطال البقاء ..
ولم يأتِ بعث يرد الأرواح إلى الأجساد ..
وظلت الأرواح حبيسة جوار أجسادها المحنطة ..
ما فائدة النبوغ في الكيمياء والتحنيط بدون بعث ؟

= أتنكرون على أنفسكم نبوغها وإيمانها ؟! هل قهركم سوء الحال إلى هذه الدرجة ؟

ــ أنت لا تدرك مدى القهر الذى نعانيه ..
= كيف لا أدرك وأنا أوكلكم رحيلا ؟
ــ الرحيل نعمة لا نملكها يا صاحب الهرم .. فمومياواتنـــا تحت أيديهم .. وأرواحنا لا تبرح المكان الذى فيه أجسادها ..

" منذ مئات السنين حزن الملك العظيم وتألمت روحه لمـــا تسلل اللصوص إلى هرمه

في ظلام المكان الرهيب تحركوا ..
وقع خطواتهم يفزعهم ..
مدوا الأيدى نحو الجسم الملفوف ..
أخرجوه من تابوته الجرانيتى ..
هبطوا به الدرج المائل ..
ربطوه بالحبال ..
دلوه من الفتحة العالية التى بقروا بها الجدار ..
تلقف الباقون الجسم الملفوف ..
وضعوه فى نعش خشبى حقير ..
فى ظلام الليل حملوه ..الروح تتبعهم أينما ذهبوا ..
تحلق فوق القارب الذى استقر فيه التابوت ..
تدخل البيت المهدم معه ..
مزقوا لفائف الكتان ..
نزعوا القلائد والأساور والأحزمة وأغطية الأصابع الذهبية ..
فزعهم جعلهم يمزقون الجسد ليسارعوا بنزع كنوزه ..
ألقوه فى حفرة عميقة ..
ألقوا فوقه لفائفه الكتانية ..
ردموا عليه ..

الجسد يتآكل .. يتضاءل ..
الروح تحوم .. وتحوم ..
الجسد تلاشى .. تلاشى ..
الروح تبحث عنه .. ولاتجده ..
تنطلق فى الكون حزينة هائمة .. "

ــ نحن يا صاحب الهرم مربوطون إلى أجسادنا ..

انتبه صاحب الهرم من ذكرياته ..

= صدقوني تلك الأجساد لاشئ !

همهمت الأرواح .. نعم هى لاشئ .. الملك العظيم صار قادرا على الترحال بعد أن تلاشت مومياؤه .. صار يرحل ويعود .. يغيب أحيانا ويسرع أحيانا لكنه يعود .. يتنسم عبيرالوطن على شاطىء النيل المقدس .. يملأ روحه بعبق الماضى الجليل .. يرتاد أهرامنا ومعابدنا ومقابرنا فتتعذب روحه وتنطلق فى جنبات الكون تلتمس العزاء ! يقذفها التجوال ثانية إلى الأرض الطيبة التى أنبتت أول عود زرعه إنسان .. فإذا هى تحتضر .. تنسحب منها الحياة شيئا فشيئا .. يقل خصبها ويزداد خطرها وتعصف بمن عليها .. تتمرد على دورها التاريخى قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة .. تندهش روح صاحب الهرم .. تقارن بين طيبة الأرض فى الزمن الفائت وقسوتها فى الزمن الحالى .. تسألها عن السبب .. تثور الأرض التى قررت الانتحار .. وتعلن أنها ملت العطاء لمن لا يصون العطاء !

ــ سنفتقدك يا عظيم

= ارحلوا معى

ــ لن نستطيع ما دامت أجسادنا هنا ..

= بل تستطيعون .. فقط حاولوا .. سأتمنى أن تحاولوا ..

ــ ونحن سنتمنى مثلك .. ومن غاب عنا سيتمنى أيضا ..

" نعم .. نعم .. الغائبون .. المرتحلون .. اللاهثون خلف مومياواتهم .. نحن الملوك العظام .. تُحْمَلُ أجسادنا وأشياؤنا للناس ليتفرجوا ! نحن الذين انحنت الدنيا أمامنا .. يحملوننا كما يحمل السحرة الأفاعى والقرود ليتفرج الناس ! "

ــ كيف يرضى الأحفاد ؟
= هم يعدون للاحتفال بك !

" **نعم سيضعون فوق هرمى طرطوراً ! نعم .. طرطـــورا ! قالوا ان قمته كانت مغطاة بالذهب .. و هى لم تكـــن كذلـــك .. حقا نحن غطينا الكثير من أشيائنا بالذهب .. ليضــــوى شـــعاع الشمس عليها .. لتلمع تحت ضوء القمر .. لتخشع لها القلوب وتنبهر بها العقول .. فتنحنــــى الدنيـــا أمامنـــا .. ويتضـــاءل الأعداء حقارة ! نعم .. لكننا لم نفكر فى أن نصنع من الذهـــب طراطيرا !** "

= هرمى ليس فى حاجة إلى طرطورهم ليصيرعظيما ..
ــ " طرطور ! ما " الطرطور " ؟
= هو غطاء للرأس قمتـــه مدببـــة .. يلبســـه المـــهرجون والأراجوزات !
ــ وما " الأراجوزات " ؟
= لا تشغلوا بالكم .. هى أشياء حقيرة مبتذلة !
ــ أنت موضع اهتمام الأحفاد على كل حال ..
= اهتمام خال من التوقير

" **فات زمن التوقير .. أحجار هرمى منقوش عليها قلـــوب وأسهم وأسماء وتواريخ .. وفى داخله تلقــــى النكـــات وتقـــام طقوس الهوس .. الرطوبة تأكل جدرانـــه ولا يرحمونـــه مـــن أنفاس الفضوليين ..** "

– هرمك على الأقل ثابت فى مكانه .. لا يُطاف به شرقا وغربا .. ولا أحد يستطيع تقليده !
– ما زالوا يتزاحمون لمشاهدة المومياء المزيفة التى يدعون أنها لحفيدك العظيم !

" فى الزمن الذى تباع فيه الأجساد .. فى مدينة الثلج .. فى القاعة الفسيحة .. فى صندوق زجاجى .. رقدت مومياء حفيدى العظيم .. الروح تحلق فى كل مكان بالقاعة .. الروح قلقة من شئ مبهم مجهول .. الأحياء يرنون بإعجاب للمومياء .. الزوار ينقطعون .. تغلق الأبواب .. توقف أجهزة الإنذار .. يفتح باب جانبى فى حذر .. يدخلون بتلصص .. يفتحون الصندوق الزجاجى .. يرفعون مومياء حفيدى .. يضعون مكانها جثة أخرى لا تحمل عطر الزمن .. جثة حقيرة محنطة كأسوأ ما يكون التحنيط ! يحملون مومياء الحفيد العظيم .. يخرجون بها فى حذر .. تحلق الروح فوق مومياتها .. ويظل الفضوليون يرمقون بإعجاب الجثة المزيفة ! "

= لا تغضب يا عظيم .. هى راقدة فى مكان ما تتمتع بالسكينة .. وتنتظر الفرصة التى سيخرجونها فيها للنور !
– منذ متى وأنتم تتصفون بهذا الخنوع ؟
= الرقدة هى الرقدة أيها الملك ..

" نباع فى المزادات ونشترى كالكباش .. تنبش قبورنا .. تسكن مومياواتنا الخالدة الصناديق الزجاجية المضاءة ليتفرج الناس .. يطاف بنا العالم استجداء

للقروش .. نترك لزلزلة الأرض ولفح النـــار .. وتعـد لنـــا الطراطير .. وتصبح معابدنا ومقابرنا مسارح ومراقـــص .. لا .. الرقدة لم تعد هى نفس الرقدة .. ولسنا مجبرين علـــى اجترار الذل للأبد .. نستطيع أن نحلق فى آفاق الكون بعيــدا عن تلك البقاع التى تعذب أرواحنا .. ولينتفعوا بما تركنـــاه لهم بالطريقة التى تناسبهم .. "

= هو الوطن !

ـ ولذلك لابد من الرحيل !

= انتظرنا يا صاحب الهرم

صاحت الأرواح الخالدة فى يأس حين أحســت بانســحاب الملك العظيم .. انطلق خلفه بعــض منــها وبقــى الآخــرون يستعدون للرحيل ..

أبريل ١٩٩٩





مُطارَد

لسعته خبطات الغصن الأخضر المنزوع حديثا من الشجرة الصغيرة الواقفة الآن بدون رأس .. فتَسَمَّرَ الفتى فى مكانـــه .. سال لعابه على جلبابه الحائل اللون .. استجاب للأمر الصـــادر له .. فحمل جواله الذى يخرج يوميا ليجمع فيه البلاستيك القديم من الشوارع .. سار فى خطو مضطـــرب غــير متجـــانس .. محتاج هو لأمه الآن لتدعو على من ضربه .. لماذا يغضبـــون منه حين يقطع فروع الأشجار ؟ بعد بضع خطـــوات وضـع جواله وجلس إلى جواره .. شجيرات كثيرة لها فروع خضراء مزروعة أمام البيوت .. تنتابه نفس الرغبة فى نـــزع الفـــروع الخضراء .. يتحسس فخذه الذى مازال يؤلمه من أثر الضـــرب ويقول بصوت نشاز :

ـــ شجرة ؟ شجرة لأ !

طاف بنظراته البلهاء على البيوت ثم استقرت عيناه علـــى الأشجار ثانية .. مازالت لديه الرغبة فى أن ينزع غصنا قويـــا يعلق فيه جواله ويحمله على كتفه .. تساءل بصوت باكٍ حائر :

ـــ بيضربنى ليه ؟

أمسك قطعة بلاط مكسورة ورفع ذراعه عاليا ليطوحها فى سخط .. الخوف المتوغل داخله منعه من إلقائها فأسقطها برفـق خلف ظهره ! رفع عينيه لأعلى فرآها تطل عليه من الشرفة .. طفح وجهه بالفزع .. كان يظن أنه وحده .. تعاطفت مع تشرده

وفزعه .. أوشكت أن تلقى له شـــيئا .. جنيـــها .. أو بعـــض الطعام .. لكنه مدّ يده لجواله المربوط بحبل .. وعلقـــه علـــى كتفه .. وابتعد يترنح قبل أن تطرده .. أوشـــكت أن تناديـــه .. لكنها زمت شفتيها وأرجأت عطفها وأغلقت شرفتها ..

في موقف السيارات جلس .. لاأحد يعيره اهتماما .. الناس تدخل السيارات بسرعة وتخرج منها بسرعة .. وتســـير فـــي الشارع بسرعة .. وتتحدث بسرعة .. تابع باندماج مـــا يـــدور حوله .. سمع الأصوات تنادى : " المنصورة , ديرب , واحـــد المنصورة , السنبلاوين " .. ظن أول الأمـــر أنـــهم يصيحـــون فيه .. لكنه شيئا فشيئا أدرك أن أحدا لا ينتبه لوجـــوده .. بـــدأ يطمئن إلى جلسته .. ثنى ساقيه وتربع على الرصيف إلى جوار جواله .. ضحك لمـــا انزلقـــت قـــدم أحـــد الصـــاعدين إلـــى " الميكروباص " .. أشار بأصبعه الغليظ قائلا :

ـــ وَله وقع !

ثم عبس بحزم وصاح ينهره :

ـــ قوم وله .. قوم سرعة !

مد يده فى جيب جلبابه .. أخرج قطعة خـــبز مطويـــة .. قربها من عينيه ونظر إليها بتمعن ليتـــأكد أنـــها هـــى قطعـــة الخبز .. رفع يده بطيئة الحركة إلى فمه فقضم منها قضمة جعل يلوكها فى فمه دقائق دون أن يبلعها .. نظر إلى الكلـــب الـــذى جاء إليه يهز ذيله .. عينا الكلب تتوسلان إليه.. توقـــف عـــن المضغ .. الكلب يرنو إليه فى استعطاف ويئـــن .. اندهـــش .. الكلب يحبه ! يبدو أنه يبتسم له .. بادله الابتسام ! مسح الكلـــب رأسه فى عضده ..

قال مشجعا :

ـــ جدع كلب .. جدع !

جلس الكلب إلى جواره مصدرا نفس الأنين مرسلا نفس النظرات .. انتابه إحساس بالمسئولية .. سأله بجدية :

ـــ تاكل كلب ؟

مد يده بخبزه المطوى فقضم الكلب قطعة وازدردها سريعا .. وقضم هو قطعة وابتلعها سريعا أيضا .. نسى السيارات والصاعدين والنازلين واندمج فى إطعام الكلب وانتزاع الخبز من بين فكيه لإطعام نفسه ! مدَّ الكلب بوزه ليأخذ قضمة فى غير دوره .. فسحب يده سريعا وصاح :

ـــ امش

تراجع الكلب يئن فى اعتذار خافضا رأسه .. انتشى صاحب الخبز ! لقد صار سيدا .. يأمر فيطاع ! انتهى الطعام .. لعق الكلب زوايا فمه .. وظل يرقب صاحبه .. لكن شيئا ما فى نظرته تغير .. شيئا أضعف شعوره بالسيادة .. دار الكلب حوله .. كف عن الأنين .. بدأ يبتعد .. ثم انصرف !

فوجئ برجل يرقبه من خلف زجاج إحدى السيارات .. تدلى فكُّه .. ردد لنفسه العبارة التى يسمعها دائما :

ـــ امش يا اهبل !

الرجل خلف زجاج السيارة مد يده داخل جيبه باحثا عن قطعة نقود .. لما وجدها كان الأهبل قد ابتعد قبل أن يطردوه .. هَمَّ بأن يناديه ولم يعرف كيف يناديه .. أرجأ عطفه .. دس قطعة النقود فى جيبه وظل يتابع الجسد المترنح وهو يبتعد ..

اكتظ الجوال بقطع البلاستيك القديم .. كان يبتسم كلما عثر على المزيد من القطع لكى يعود إلى أمه فتقول له : " جدع " ! ويتساءل مع كل قطعة يضعها فى الجوال : " جدع يا امه ؟ " .. أخرج من صدر جلبابه جوالا آخر مطويا .. فرده وبدأ يجمع

فيه قطعا أخرى .. تبعثرت القمامة التى يبحث فيها والتى كانت مجموعة فى برميل كبير .. سعيد هو بما سيعود به لأمه .. بعد أن بدأ الجوال الثانى يمتلئ .. أخذ يردد :

ـــ أمه تروح المصنع .. أمه تجيب فلوس

أرعبه الصوت الصائح به فوقع قاعدا مكانه نـــاظرا إلـــى صاحب الصوت .. الركلات توجع جنبيه وصـــدره .. حركتـــه المهزوزة لا تسعفه بالنهوض .. لما نهض لم يَجْر .. بل قبــض على جواليه وجرهما خلفه والركلات تلاحقه ..

جلس أمام بوابة أحد المنازل واضعا جواليه إلى جـواره .. رفع جلبابه متفحصا جنبه وبطنه .. كدمات زرقاء وحمراء على جسده .. الطفل العائد من المدرسة رأى الجســـد المصـــاب .. أنزل حقيبته من فوق ظهره وفتحها .. أخرج ما تبقى معه مـــن طعام ومصروف .. تلفت حوله فلم يجده ولم يبحث عنه ..

كان مختبأ خلف الناحية الأخرى من الدار وهو راض عـن نفسه لتمكنه من الهرب فى الوقت المناسب !

سار مجرجرا جواليه محنيا جسده المتألم .. ممنيـــا نفســه بثناء أمه عليه .. ودعواتها على من أغضبه !

يونية ١٩٩٩



تحولات

سمعوه فى هدأة الليل
يفح صوته ..
يتسرب إلى خلاياهم ..
" أيها النائمون .. لم يكتمل النصاب "
تقلب النائمون فى فراشهم ..
فُتِحَتْ العيون وبحلقت ..
تمتمت ألسن تستعيذ من الشيطان ..
بحثت أرجل عن مداساتها ..
تسربوا فرادى وجماعات خارج الدور ..
كلّ يسأل الباقين :
ـــ هل أديتم ما أنتم به مكلفون ؟
ـــ ما هو الذى نحن به مكلفون ؟!

منذ أن ارتفع البناء الصارم فى وسط البلدة .. سمعوا فحيح صوته الكريه مرتين .. هذه هى المرة الثانية ..

المرة الأولى
فى هدأة الليل سمعوه ..
يفح صوته ..
يتسرب إلى خلاياهم ..

" أيها النائمون انهضوا ..
سَكَنْتُ اليوم بلدتكم ..
ولى تقربون القرابين..
فاحذروا لعنتى إن لم تتم القرابين نصابها "

لما أشرق الصباح .. كانت العيون مرهقة .. والوجوه شاحبة ..

ولما بدأت الألسن تتناول سيرة الهاتف المجهول الذى يسكن البناء الأسود الصارم .. اختلفت الآراء .. وتُبودِلت الاتهامات ..

ثار شجار عام ..
ارتفعت أذرع وهوت أكف ورفست أرجل ..
سالت دماء وتفتتت عظام ..
وأغلِقت الأبواب على أحقاد لم يكن لها بالأمس مكان ..
واكتمل النصاب !

# # #

أشرقت شموس واكتملت أقمار .. ولم يُسْمَعْ الفحيح المجهول ..

ظل البناء الملعون قائما فى قلب البلدة ..
وظلت الأحقاد كامنة فى السرائر ..
لكنهم كفوا عن الشجار ..
وهاهم الليلة بعد طول سكون .. يسمعونه ..
سألوا أنفسهم :

ـ أى نصاب هذا الذى لم يتم ؟
اقتربت الخطوات خائفة من مقره المُصْمَت ..
صاح صائح :
ـ ماذا تريد منا ؟
أطبق الصمت فى انتظار رد ..
ـ يا ساكن البناء الأسود اخرج وحدثنا
قصرت فترة الصمت ..
ـ مع من تتحدثون ؟ إن هى إلا جدران صمّاء !
ألجمتهم جرأة الفتى ..
ـ صه ! لا تستفزه !
ـ جبناء
أثارهم اتهامه ..
ـ طائش أرعن !
ـ تلتمسون الرحمة من الأحجار يا أغبياء ؟
الجميع اتجه نحو الناصح ..
ارتفعت أكفهم وهَوَت ..
سقط جسد وسالت دماء ..
فاكتمل النصاب !
وأشرق صباح ثقيل .. وقد ازداد ارتفاع البناء الأسود !

تغيرت مشاعر البشر .. شاهت ملامحهم .. صارو أكثر قدرة على ملاحظة ما يكرهونه فى بعضهم البعض !

اختنق جو البلدة .. توقف هواؤها عن الحركة .. وأصبحت له رائحة تضيق بها الصدور .. حتى نَبْتات الأرض .. أخذت

أشكالا مستفزة .. ألوانها حمراء و برتقالية وصفراء .. صــارت بقعا مثيرة كريهة ..

###

فوجئ الناس بالشاب يعلن أنه لن يتزوج مثل من سـبقوه .. وحلف برحمة أبيه أن يقيم فرحا تحييه الغوازى !

ــ فرح تحييه الغوازى ؟

ــ هنا فى تلك البلدة المشئومة ؟

صاح بهم :

ــ أى شؤم يا أهل العقل ؟

فرح .. وسهر .. وطبل .. وزمر !!

يالها من فكرة !



تَحلَّقَ الناس حول البساط الــذى فُــرِشَ لتــتراقص فوقــه الغوازى .. كل الناس جاءوا .. لم يبق بالبيوت أحد .. جلســـوا بدون تحية .. كل ينظر أمامه ويحاول ألا تنحرف عينـــاه يمنـــة ولا يسرة .. دقت الطبول ورنت الصاجات .. وخطت الغازيـــة فوق البساط تترجرج .. نـــهض العريــس يرقــص أمامـــها .. تجرّأت بعض الأكف وصفقت .. التفتـــت رؤوس .. ابتســمت شفاه .. تمتمت ألسن : " عقبال عندكم " .. علت أصوات تـــهنئ

العريس .. تسربت حياة إلى قلوب أماتها حزن مشئوم .. شـــقت زغرودة طويلة قلب الليل .. وغرق الناس فى فرحهم ..

سمعوه فى صخب الليل !
يفحّ صوته فى قلب قلوبهم ..
" لم يكتمل النصاب "

انتفضوا .. افترس الرعب القلوب .. اختطفـــت الأمـــهات صغارهن وطوقنهم بأذرعهن .. رقعت الغازيـــة بـالصوت .. البناء الأسود بدا كعفريت يطل عليهم .. الأقدام تجـــرى نحـــو دورها .. جرَّ الأب ابنته العروس فى يده ..

ــ طلاق ثلاثة ما أزوجها لك !
= ماذا تقول ؟
ــ ماسمعته !
= لماذا ؟
ــ لماذا ؟ كان قدمك أغبر !
= ولكنى كتبت عليها
ــ طلاق ثلاثة ما تاخذها !
= أهو لعب عيال ؟
ــ ليلتك سوداء ! لن تأخذها !
= سآخذها !
ــ لن يحدث !

تشرب رماد الأرض دماءً سالت ..
وأغلقت الأبواب على كره قد بلغ مداه ..
واكتمل نصاب الشر !

ولما أشرق الصباح كان البناء المشئوم قـــد ارتفـــع حتـــى اختفت قمته بين السحب ..

# # #

وياله من يوم كان .. هذا الذى دكت فيه صاعقـــة البنـــاء الأسود الصارم .. فانهار مثيرا عواصف الغبار التـــى خنقـــت الكثيرين من أهل البلدة .. والتى حجبت النـــور عنـــها أيامـــا وأياما .. إلى أن تحول الغبار إلى رماد أسود ناعم .. غطـــى مساحة واسعة فى قلب البلدة .. وصار أهل البلدة يحيون كـــل عام ذكرى صاحب الكرامة .. و يتبركون بهذا الرماد التماســـا للشفاء والسعادة والذرية !!

فبراير ١٩٩٩





الابن

والله ياأبى لو حسبت مجموع ما أرسلته لك لبنى لك بيتا .. لكن ماذا أفعل ؟

توقيعات .. توقيعات .. شيكات .. شيكات .. أين تذهب كل هذه الأموال ؟

" على قد لحاف ابنك مد رجليك " .. هكذا يجب تعديل المثل .. فقد أطلت أقدامك يا أبى من تحت لحافك وبحلقت .. آهٍ لو تعلم كيف تأتى هذه الأموال ؟ آهٍ لو تعلم أمى ماذا أدفع فى مقابل السمن البلدى ومواسم البنات ونقوط الجارات ؟ قلق الليل .. التوهة فى بلاد الغربة .. حياتى التى أجرى بها على الطريق سائقا للسيارات ..

" ادفعوا لأمر (......) مبلغ خمسمائة دولار .. .. .. " للأطباء والعلاج .. لوجع الركب وضعف البصر .. كان الرمد يقرح أعيننا ويأكلها .. والبلهارسيا تمتص دماءنا .. والرّبو يعصف بصدورنا .. ولم نعرف للأطباء طريقا ! اللحاف كان قصيرا .. ومن أين ــ يا أبى ــ كنت ستأتى بالمال ؟ والأرض حين نضربها لاتطلع بطيخا ! لكنها الآن طلعت دولارات ! فلنشبع شوقنا لعلاج أنفسنا .. ولنعش كما يعيش الناس .. ولنحترم وجودنا ! إنفاق المال متعة .. نعم متعة ! كسبه هو

المحنة ! المحنة التى عاشها أبى وعاشـتها أمـى سـنوات .. أجيران زراعيان .. وثمانية أبناء .. وحجرة فى دار جـدى .. وجدة عجوز ناقمة تجرع أمى كل ألوان التقريـع والسـخط .. وجد صامت محطم يخجل من تناول كسرة الخبز كلها فيعطـى من يجاوره من أحفاده نصفها .. فكنا نتزاحم ونتدافع بالمنـاكب لنجلس بجواره !

من السوق تعود أمى ظهرا حاملـة الرضيـع .. أعـواد من الجعضيض لملمتها من حواف الحقول وباعتـها بقـروش معدودات .. تمسح بكفها الخشن رؤوس الصبيـان وتحتضـن الصبايا ! تشرق الحياة فى الدار .. نصيح ونصخـب ونجـرى ونطلب الطعام .. ونشكو لها جدتنا .. فتضع سبابتها أمام فمـها لألا يغضب أبونا غير الموجود بالدار ! ينادى جـدى علينـا لنجلس معه ونسليه فنجرى مبتعدين عنه ! وينام جـدى وهـو جالس .. فنعود بحذر لأمنا .. تبتسم لنا فى عتاب لاتنطق بـه لألا نزعل ! ويعود أبى .. يجلـس مسـندا ظـهره للجـدار الطينى .. وتوضع الطبلية فنتحلق حولها .. حتى فـى وقـت تناول الطعام كانت أمى تقوم وتقعد .. تبلل مزيدا من الخـبز .. تأتى بالرضيع الذى استيقظ وعلا بكاؤه .. ترد على من ينـادى خارج الدار .. تضع البراد على وابور الجاز ليكـون الشـاى جاهزا بعد تناول الغداء .. حين كنا نراها جالسة بلا عمل كنـا نجرى نحوها سائلين : " مالك يامه ؟"

هاهو التوقيع يا أمى .. لكن اللحاف بـدأ يقصـر .. فـى الصيف الماضى بخلت على نفسى بتكاليف السفر والزيـارة .. العيال أولى بهم .. وضعتهم فى البنك وقلت الأيام تفوت بسرعة وكلها سنة .. أرسلت زوجتى تقول : " ابـق عنـدك مـادمت

مرتاحا " .. ادعيت عدم موافقة مستخدمي لأتجنب سـخطكم .. لكن مافى البنك يتناقص .. الأولاد يكبرون .. ويتعلمون .. أفكر أحيانا فى الكذب عليكم مرة أخرى .. عدم نزولى فـى اجـازة يوفر الهدايا والبعثرة يمينا وشمالا .. لكن العيال .. هل يمر عام ثالث دون أن أراهم؟ الولد الصغير أتم عامه الثانى ولم أره !

هذا الشيك سيكون فى يد أبى غدا .. أوصيت من سـيحمله أن يسلمه له بمجرد وصوله .. ستسرع أمى إليه وهى تمسـح كفيها فى جلبابها قبل أن تصافحه .. " إياك أن تحكى لهما عـن الحادث " .. ولماذا يقلقكما ؟ تحطم فانوس السـيارة وزجـاج البوابة الفخم .. وخرجت أنا مثل الحصان .. ودفعـت مرتـب ثلاثة شهور غرامة وإصلاح .. لو كنت أنا الذى كُسرت كـان أوفر !

" واحرص ياأبى ألا تذكر أمام أحد — حتـى زوجتـى — أننى أرسلت لك فلوسا .. وأكد على أمى أيضـا .. وسـلامى للجميع "

نعم إرفاق هذه الرسالة بالشيك أفضـل .. لقـد أصبحـت زوجتى تثور لكل مليم أرسله لأبى .. خاصة وأننى حكيت لـها عن الحادثة والغرامة لألا تغالى فى طلباتها لمجاملة أهلها !

سنوات .. تبقى بمفردها ترعى أطفالى الثلاثة .. أصبحـت أبا وأما .. تدخر معظم ما أرسله لها باسم الأولاد وتنفق مرتبها البسيط عليهم .. وأنا أستكثر طلباتها .. ملعون أبو الفلـوس ! تعيش مربية .. زوجة حين أعود .. راهبة حين أسـافر .. ولا

أريدها أن تمتع نفسها حتى بسعادة المهدى حين يقدم هداياه إلى أحبائه !

أهذا كل ما لدى من نقود الآن ؟ لايهم ! فى داهية الفلوس ! سأرفق لها رسالة .. الشيك لأبى والنقود السائلة لزوجتى .. أبى ينتشى بالذهاب للبنك وصرف الشيكات .. سعيد هو بالتعامل مع البنوك .. يشعر أن تعبه معنا لم يَرُحْ هدرا وأننا رفعنا رأسه .. حصلنا على الشهادات المتوسطة وتوظفنا .. وهأنا أرسل الأموال والعباءات والبطاطين التى تنشرها أمى ليراها الجيران ! بينما يجلس أبى أمام الدار يسمع شرائط التسجيل .. ويأتى الجيران فيجلسون معه .. وينادونه ياحاج .. نعم .. ويشربون الشاى فى الفناجين ! ويحكى لهم عن رحلته العلاجية فى المدينة .. كشف الطبيب أبو خمسين جنيها .. والدواء أبو أربعين جنيها .. والتاكسى الذى يقله من مكان لمكان بثلاثة جنيهات .. يشعر بالنشوة حين يترجم كل شئ إلى جنيهات .. وحين يقولون له : " ربنا يبارك لك فيه " .. يرد : " آمين ياربَّ العالمين " .. لكن أمى التى تسمعهم من داخل الدار تتمتم : " الله أكبر .. اللهم صلى على النبى " !

فتحتُ الباب حين سمعت الطرق

ـ تفضل

جلس من سيحمل الرسائل

= طبعا بعثرتَ المال كعادتك !

ابتسمت ومددت يدى بالمظروفين ..

ـ فلوسك هذه تنفق على الجيران وسائقى السيارات الخصوصى ..

اتسعت ابتسامتى .. وانشرح صدرى .. حين تصورت أبى وهو يتناول المظروف من صديقى ويضعه فى جيب الصديـــرى ويقول :

ـــ والله يا ابنى الفلوس بالداخل أكوامٌ !

مارس ١٩٩٩



الأب

" ذلك الحائط يجب أن يطلى من جديد .. فالقادم يراه قبـــل أن يعبر القنطرة .. وجدارٌ متساقط الطلاء لا يصح أن يكــــون واجهة للدار .. لكن الشيك تأخر .. كان المفــروض أن يصـــل قبل ذلك "

راودته تلك الأفكار قبل أن ينادى :

ـ يا حاجة

جاءت فى جلبابها الزاهى ..

ـ هذا الجدار يا حاجة يقلل قيمة الدار ..

نظرت له نظرة كان يتوقعها

ـ أيصح أن تكون دار " المحروس " هكذا ؟ يجب أن نرفع رأسه !

مصمصت شفتيها فى سخرية !

ـ ألا تحملين هم غضب ولدك لمنظر الدار حين يراها فى إجازته ؟

ابتسمت .. شجعته ابتسامتها ..

ـ سأتفق مع النقاشين ليعيدوا طلاء الدار ..

= تؤ .. تؤ .. تؤ ..

طقطقت بلسانها وهزت رأسها يمنة ويسرة ..

ـ لماذا لا ؟

= انسَ هذه الفلوس تماما ..

ــ كيف ؟

= لقد وعدت شيخ الأوقاف أن أتبرع بها كلها لشراء بسُط وثلاجة وتجديد دورة مياه المسجد ..

ــ المسجد سيجدد بنا أو بدوننا ..

= أنت لاتعرف شيئا .. لقد وعدني أن يكتب اسم المحروس ابنى على لوح رخامى فى مدخل المسجد ..

ــ ماذا سيفيده اللوح الرخامى ؟!

= هو هكذا ! الجميع سيتحدثون عن كرمه وغناه !

ــ وداره مقشرة مبقعة ؟

= ندهنها من الدفعة القادمة ..

نهضت .. طول عمرها قوية .. لاتلين .. ولا تغضب ! وما تريده تفعله دون تحدٍ أو صخب ! عاشرت حماتها فلم يسمع لها صوت رغم صوت الحماة الزاعق دوما .. يوم أن ولدت البنت أجبرتها حماتها على الجلوس أمام الفرن .. قالت لها : " لو كانت ولدا كنا أرحناك " .. نهضت من فرشتها .. حزمت وسطها بجلباب وأتمت ما طُلِب منها .. لكنها ــ وبدون أن يشعر أحد ــ أصبحت هى التى تحدد موعد الخَبْز ومقدار الدقيق رغم أن هذه القرارات كانت من صميم تخصص الحماه .. وشيئا فشيئا تحولت المسئوليات إليها ! كل إجبار وهدير وزعيق من جانب الحماه يتبعه ضياع لدور من أدوارها .. حتى لم يبق لها سوى التذمر وشتم الأحفاد .. ولم يعد هناك ما يعوق انسياب الحياة فى الدار !

" لوح رخامى فى مدخل المسجد "

تمتم الأب مجترا الفكرة ..

ــ ياحاجة

جاءت فى ثوبها الزاهى ..

ـــ أترين أن اللوح الرخامى أفضل من طلاء الدار ؟

ابتسمت .. فالفكرة بدأت تروقه ..

= المهم ما تراه أنت ياحاج ..

تعديل ملحوظ فى الأسلوب .. مادام قد بدأ يميل .. فلمـــاذا ينفذ وهو يظن أنها ليست فكرته ؟

ـــ كنت أرى أن طلاء الدار أفضل ..

= إذن فليكن طلاء الدار .. وإن كان هذا ســـيفوت علينـــا فرصة تجديد المسجد .. لأنه سيتجدد بدون مشاركتنا فالكل يريد انتهاز الفرصة .. أما الدار فيمكننا فى أى وقت طلاؤها ..

ـــ لكن ماذا سيكتبون على اللوح الرخامى ؟

= اسمه .. وعدنى الشيخ بذلك ..

ـــ يعنى .. ..

وتردد فى حياء

= اسمه واسم أبيه طبعا !

ابتسم الرجل فظهرت بقايا أسنان متآكلة وتجعـــد وجهـــه فلمعت شعيرات ذقنه الفضية ! انسحبا للداخل .. أغلقـــا بـــاب الدار .. أعد الغداء .. نفس الطعام القديم .. جبن وخبز وبـــراد شاى على النار يُعَدُّ ليُشرب بعد الغداء ! الجديد هو زجاجـــات وأقراص الدواء التى وضعت على الطبلية بجوار الطعام ..

ـــ خذ قرص ما قبل الطعام يا حاج ..

الماء يبقبق فى البراد .. مسحت الأم شفتيها وحمدت الله .. ونهضت بصعوبة لتعد الشاى ..

ـــ نسيتِ قرص منتصف الوجبة ياحاجة ..

= ساعة البطون تتوه العقول ..

جلسا يحتسيان الشاى ورائحة الصابون الأجنبى تفوح مـــن أكفهما المجعدة ..

ـــ نقطتُ ابنة جارتنا أمس بعشرة جنيهات حين وضعت ..

= عشرة فقط ؟ وهل هذه قيمة المحروس ابننا ؟
ـ أختها حبلى أيضا وستلد هذه الأيام ..
= تقصدين التى تزوجت فى الشتاء الماضى ؟
ـ نعم
= التى أهديتها بطقم الفناجين الصينى ؟
ـ لا .. تلك ابنة الجارة الأخرى .. لم يرزقها الله بالعيـال بعد ..
= العيال زينة الدنيا .. سَيُسَرُّ ولدى كثيرا حين يرى اسـمه على لوح المسجد ..
ـ ربنا يوسع رزقه على قدر إنفاقه فى الطيب .. إنه لايعز شيئا على أحد ..

طرقات على باب الدار ..

فتح الأب ..

بعد التحيات والسلامات والسؤال عن الصحـة والأحـوال امتدت يدٌ بشيك .. تناوله الأب وهو يقول :

ـ والله يا ابنى الفلوس بالداخل أكوام !

مايو ١٩٩٩



الغــوث

(حكاية ظريفة فى هيئة تخريفة)

ـــ ١ ـــ

الخلق سائرون .. كلهم خرجوا فى لحظة واحدة .. ولدتــهم عيون الماء وفوهات البراكين وفـــروع النباتـــات .. بعضـــهم أسقطته السحب وبعضهم جلبته الريح من أمكنـــة مجهولـــة .. النور شـــكّلَ أعدادا منهم والظلام نحت أعدادا أخرى .. أمـــا الصوت فقد عوى وهمس ودوّى ونثر مخلوقاته ..

لحظة الميلاد تعقبها الدهشـــــة .. لمـــا انتـــهت دهشـــة المواليد .. ولما استسلموا لعجزهم عن إيجاد إجابة لسؤال " أيـن كنا قبل الآن ؟ " تفرقـــوا .. هـــاموا فـــى هضـــاب الكوكـــب ومستنقعاته وغاباته وصحراواته وجباله .. أبناء الريح وأبنـــاء السحب .. أبناء البراكين والنباتـــات .. وأيضـــا أبنـــاء النـــور والصوت .. كل الأبناء لهم نفس الشكل .. جذع يحمل كرة بـــها ثقوب .. والجذع تحمله زوائد ..

— ٢ —

الشجرة الخضراء .. المليئة بالثمار الوردية المكتنزة بالحلاوة .. تعيش بجوارها مجموعة من الجذوع الحاملة للكرات المحمولة على زوائد .. يقطفون الثمار الوردية الحلوة بزوائدهم .. يضعونها فى أحد ثقوب الكرة التى يحملها جذعهم .. يحشون جوفهم بالثمار دائما والشجرة لا تكف عن الإثمار ! يتقافزون لتطول زوائدهم الثمار العالية .. صارت قفزاتهم تضاهى الشجرة ارتفاعا ..

أما الجذوع التى تفرقت فى الصحراوات .. فقد طالت ورفعت وقصرت زوائدها حتى تلاشت .. صارت تختفى بين الرمال وفى الشقوق تبحث عن قطرات الماء .. وكثيرا ماكانت تقابل الجذوع التى طمرتها الرمال فى زمن العواصف فقزّمتها وكورتها .. وجعلتها ضعيفة ضئيلة .. فكانت تفتح فاها فتمر المخلوقات القزمة إلى جوفها فى يسر ..

— ٣ —

لما هجم المخلوق الذى نبتت لزوائده مخالب على المخلوقات التى تعيش حول شجرة الثمار الوردية .. ورأوا أحد ثقوب رأسه واسعا .. مجوفا .. يخرج منه صوت مدو .. صرخوا .. قفزوا عاليا .. حملهم الهواء فطاروا ! والمخلوق ذو المخالب يتابعهم بثقبى رأسه البراقين .. ويضرب بمخالبه الهواء .. اعترض طريقه مخلوق آخر استطالت رأسه واتسعت عيناه فى براءة .. هجم عليه ذو المخالب .. فصات ذو الرأس الطويل عاليا وتناثرت قطرات حمراء ..



ـ ٤ ـ

صار ذو المخالب ـ الذى أسموه أسدا ـ ملكا .. يأمر وينهى .. وباقى المخلوقات صارت شعبا مقهورا استسلم للطاعة والخوف .. اختفت أصوات المرح الجميلة .. و حلَّ الوجوم محل البسمات .. توقفت الذيول عن الحركة .. والحناجر عن التغريد .. امتدت الأعناق فى ذل تسترضى الأسد .. وأصبحت الحياة كريهة .. لذلك اتسعت الآذان و بُسِطَتْ أصونتها وأُرْهِفَتْ الأسماع .. لما تحدث المخلوق الطائر فقال :

ـ هذا الأسد لايصلح ملكا .. وأنا أعف منه نفسا وأطيب قلبا وأكثر حبا لكم ..

ذهبت تحذيرات المخلوقات الطائرة الصغيرة هباء لما حذروا من سوء نية الطائر الكبير الذى يلتهم أفراخهم ويبتلع بيضهم ويخرب أعشاشهم .. لم تهتم المخلوقات الأرضية بسلامة المخلوقات الطائرة الصغيرة و قالت :

ـ نحن لا نبيض ولا نعشش .. وليس للطائر الكبير مصلحة لدينا .. وهو لايتطلع إلى فائدة من ورائنا !

كفّت الطيور الصغيرة عن التحذير وابتعدت عن الكائنات الأرضية .. وتجمعت فى مكان واحد .. وصنعت لنفسها أعشاشا كثيرة على شجيرات متجاورة ..

ـ ٥ ـ

تربع المخلوق الطائر الذى صار اسمه نسرا على عرشه .. وصارت باقى المخلوقات شعبا بائسا يأتيه الأذى من

السماء ومن الأرض .. وصار أعوانه من حدآن ويوم يخربـون الأرض والأوكار ويلتهمون لحوم الصغار ..

قـالت الرعية :

ــ ليس هنـاك أفضل من صاحب الرأس المستطيل ..

سـعوا إليه وقالوا :

ــ نريدك ملكا . قال :

= أنا لها ! قالوا :

ــ خلصنا من النسر فنجعلك ملكا .. ونطيعك ولا نخذلك ! قال :

= أنا لها . قالوا :

ــ ذو الرأس الطويل شجاع !

اختبـأوا يرقبونـه وهو ينتظر النسـر .. فلمـا حط إلـى جواره صارحه ذو الرأس الطويل :

ــ جئت يا نسر لأقتلك !

تقدم النسر فى خطوات غاضبة وعيناه تقدحان شـررا .. رفس ذو الوجه الطويل رفسة فزع استعدادا للفرار فإذا الشـعب يخرج من مخابئه شاكرا .. ضاحكـا .. مـهنئا .. التفـت ذو الرأس الطويل وراءه .. فإذا النسر مقتولاً .. تساءل فى دهشة :

ــ من قتل النسر هكذا ؟!

ــ ٦ ــ

ذو الرأس الطويل الذى أصبح اسـمه حمـاراً .. صـار ملكا .. لم يكن يطمع فى أكثر من مساحة من العشب ليقضمـها بأسنانه العريضة .. مضت الحياة ناعسة هنية .. قبل أن تظـهر أفراخ النسر و ولدان الأسد ! نهق الحمار لما رآهم .. فقد تذكر جريمته لما قتل النسر وأحس بالأسى .. برز إليه شـعبه لمـا

سمعوا نهيقه .. فرأوا أفراخ النسر تحلق .. و ولـــدان الأســد رابضة ترقبهم عن بعد .. قالــوا : مولانــا الملــك يحذرنـــا بنهيقـــه من الأعداء .. ســــألوه :

ــ بماذا تنصحنا يا صاحب الجلالة ؟

= أنصحكم بماذا ؟ عيشوا كما تعيشون ولننتظر ما ســوف يفعلون !

ــ ألا نستعد لمقاومتهم ؟

= كونوا حكماء ! هل آذوكم في شئ ؟

ــ ٧ ــ

امتلأت السماء بذوى المناقير المعقوفـــة .. وأحــاط ذوو الأنياب والمخالب بالمملكة .. حجبوا نور الشـــمس ونّسـمات الهواء .. تخبطت القلوب في الصدور فزعـــا مـــن ضربــات الأجنحة الجبارة والزئير المهدد ..

ــ يا مولانا الحمار تصرف !

= هل يجب أن أتصرف ؟ حاضر ســـأتصرف .. ولكــن كيف أتصرف ؟

برز من المياه العميقة مخلوق التصقت رأسه بجذعه وصار له ذيلا مشقوقا .. نفخ الماء نافورة من أعلى رأسه .. قال :

ــ رأيت على اليابســة البعيدة مخلوقا جبارا .. ينفث النار ويسحق بأقدامه المفلطحة الكائنات .. له عشرات الأذرع التـــى تطول وتقصر وتلتف وتقتلع .. في خطوتين اثنتين يســتطيع أن يصل إليكم فيحميكم من أعدائكم !

ازداد خبط القلوب على الضلوع لمــا ســمعوا أوصــاف المخلوق الجبار ..

سأل المخلوق الذى ينفث الماء نافورة من أعلى رأسه :

ـــ هل أسبح إليه وأناديه ليحميكم ؟
صاح الحمار :
= أسرع ياصديقنا .. أغثنا !
غطس وبين الحين والحين كانت نافورته تظهر أصغر وأصغر حتى اختفت ..

ـــ ٨ ـــ

رعدت السماء .. وثارت الأمواج .. وتشققت الأرض.. وطاشت الرياح لما صاح المخلوق الجبار ..
ـــ ها قد جئت لأنقذكم !
ارتفعت الرؤوس لأعلى .. لأعلى .. لكنها لم تستطع تبين ملامح المخلوق المختبئة فى الغيوم .. خافت الصرخات أن تنطلق .. وتسمرت الأجساد لا تقدر على الفرار ..
ـــ أين ملككم ؟
فتت الصوت المدوى الجبل .. طيَّر النحلات من أوكارها .. عكر مياه النهر الرائق ..
= أنا هو يا مخلوق ياجبار
مد المخلوق عنقه لأسفل .. فظهرت رأسه .. وقدحت عيناه شررا .. ثبت نظراته على الحمار .. ثم نفخ فى استهانة فلفحت رياح الصهد جانب شجيرات الغابة فجفت أوراقها وتكسرت وتساقطت ..
ـــ أين أعداؤكم ؟
= فى السماء والأرض أيها المخلوق العظيم ..
ـــ حدد يا ذا الأذنين الطويلتين .. هل السحاب عدوكم أم العصافير ؟ وهل الشجيرات أم الأنهار أم رمال الصحراء أعداؤكم ؟

- النسور يا عظيم .. والأسود ..

زفر المخلوق زفرة ضيق فلفحت ريـــاح الصـــهد فــروع شجيرات الغابة فجفت وتكسرت !

مد المخلوق الجبار شفتيه إلى مياه النهر .. شفطها حتـــى ظهر قاع النهر الطينى .. وبدت مخلوقات قشرية براقة تتقـــافز فى وحل قاعه ..

لف ذراعه على جانب شجيرات الغابة فاقتلعها وحشا بـــها جوفه .. واستنشق فتطايرت صغار الكائنات إلى جوفه ..

تمدد فوق الأوكار والجحور فدمرها ..

نام فعلا شخيره مزلزلا الأرض ..

الأعين تختلس النظر من الجحور والأوكار فـــى هلـــع .. ينادون فى صوت هامس :

ـ يا مولانا الحمار

والحمار يقضم العشب وهو راض كل الرضا عن حســـن تصرفه !

ـ ٩ ـ

قذف المخلوق الجبار اللهب فى السماء .. فتساقطت النسور محترقة .. وتساقطت معها العصافير والنحلات والفراشات ..

صاح الحمار :

ـ ما أعظمك يا مخلوق يا جبار !

الأعين تفيض بالدمع على نحلات العسل وعصافير النغـــم وفراشات الربيع ..

نظر الحمار إلى رعيته آمرا :

ـ اشكروا المخلوق الجبار !

انحنت الرؤوس فى تسليم

نزع المخلوق ما بقى من شجيرات الغابة .. وحشـــا بـــها جوفه ومدَّ فاه إلى السحابات المكتنزة بالأمطار فامتصها .. ونام يزلزل الأرض بشخيره ..

تسحبت الرعية إلى ملكها الحمار .. وتوسلت :

ـ أغثنا يامولانا الحمار

= أوَ أكثر من هذا غوث ؟

ـ هذا دمار يا مولانا !

= دمار ؟!

ـ خلصنا منه يا مولانا .. أوَ لم ترَ ما فعله بنهرنا وغاباتنا وإخواننا ؟ خلصنا منه وسنبحث نحن عـــن وســيلة لمواجهـــة الأسود والنسور

= أخلصكم منه ؟ ماذا تظنونني ؟! هل رأيتم لى يوما مخلبا أو نابا ؟ أم تراكم تظنون أن جوفى محشوّ باللهب الحارق ؟ أنــا يا أغبياء **حمار** !

ثقلت الرؤوس على الأجساد فتدلت .. جثـــم الـــهَمُّ علـــى النفوس فهدها .. وجرَّت المخلوقـــات خيبتـــها واختبـــأت فـــى الجحور ..

ـ ١٠ ـ

امتلأ جوف المخلوق الجبار بلحـــم رعيـــة الحمـــار بعـــد أن قضى على كل أعواد الزرع حين قـــذف الأســـود باللـــهب الحارق ..

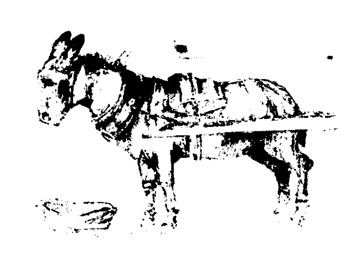
ثارت الرعية .. هجّت مـــن أوكارهـــا وانتشـــرت حـــول الحمار ..

ـ ماذا تنتظر أيها الملك الحمار ؟ أطلب منه أن يرحـــل ! أولم يقض على الأعداء منذ زمن ؟ ماذا ينتظر ؟

ضحك الحمار بتذاكٍ

ـ يالكم من بلهاء .. أولم تلحظوا الأسد الذى اســتطاع أن يفر من مرمى لهب المخلوق العظيم ؟ ماذا نفعل إذا عاد إلينـــا هذا الأسد مهددا ؟!

مارس ١٩٩٨



بوابات الموت

طفلنا شعره أسود .. مثل كل أطفالنا ..
عيناه سوداوان .. مثل كل أطفالنا ..
قدماه صغيرتان .. صوته مصوْصِوٌ .. مثل كل الأطفال ..
طفلنا ليس ككل الأطفال ..
طفلنا جائع .. يأكله المرض ..
طفلنا الذى لايجد القوت .. غنى !
لكنه حين يحاول شراء الخبز من التاجرة .. ترفض كنوزه .. تقول له :
ــ افتح لى بيديك الصغيرتين بوابات القصر الكبير .. لأعطيك ما تريد
يرتمى طفلنا فى فراشه منتظرا ..
والغاشمة تحمل فى يدها قنبلة .. لاتضعها أمام بوابات القصر الكبير .. لكنها تعبس فى وجه طفلنا .. وتلوّحُ له بها ..
العيون الكثيرة ترقب طفلنا ..
عيون زرقاء وخضراء .. أما العيون السوداء كعينيه .. فهى تبكيه ..

حين يموت الطفل .. قد تجف دموع العيون السوداء .. وقد تنهار بوابات القصر الكبير بفعل فاعل أو من تلقاء نفسها .. وقد يجد أطفال آخرون هنا أو هناك من يرفض عذابهم ..

لكنى سأظل أذكر أن التاجرة تلـــــذذت بمـــوت طفلـــى ..
وسيزداد كرهى لثوبها المخطط بالأبيض والأحمر كل يوم !

ديسمبر ١٩٩٧



فرحة ما تمت !

زادت الطرقات عنفا .. ويبدو أنها صوحبت بركـــــلات .. الأبناء فى غرف الدار الكثيرة .. كل واحد أغلق علــــى نفســه غرفة .. بدأت الأصوات تنادى من الخارج .. والحجارة تقـذف فى النوافذ .. والأبناء فى شغل عن تلبية النداءات .. تسلق واحد من الطارقين الجدار إلى نافذة يشع النور من خلف خصاصها .. لم يرد أحد على طرقاته أو نداءاته الصارخة .. الابن الكــــامن فى الحجرة بين كومة أوراق .. تعلو شفتيه ابتســــامة انتصــــار أحيانا حين يقرأ إحدى الوريقات .. فيفردها ويضعها بحــــرص فوق وريقات أخرى بهيجة يرصها على فخذه .. ويحــــك ذقنــه التى لم تحلق منذ أيام .. الطرقات على النافذة لاتثير انتباهــه .. والنداءات لا تسمعها أذناه ..

هبط متسلق الجدار .. فــتُرَ الطــرق والنــداء .. ســرت همهمات .. لابد أن شيئا قد حدث .. عُرضت الاحتمـــالات .. ربما سافروا .. أو اعتكفوا حزنا لموت أبيهم .. وربما مــاتوا ! لو سافروا لما تركوا الأنـــوار مضـــاءة .. هـــم إذن حزانـــى أو موتى .. سرت الحماسة من جديد .. علت الأصوات مناديــة فى حدة .. لاأحد يرد .. هل يسمع الموتى ؟ لابد من تصــــرف آخر .. برز المتسلق ثانية .. عرض أن يتسلق إلى سطح الــدار ثم يهبط السلم ويكسر باب إحدى الشقق .. لــم يلــق اقتراحــه

استحسانا .. ربما كانوا نائمين أو معتكفين ولا يصح أن تقتحم البيوت هكذا .. لكن من الممكن أن يصل المتسلق إلى تلك الحجرة الثانية المضاءة القريبة نافذتها من شجرة التوت العالية .. وإذا كانت الحجرة الأولى قد تُرك نورها مضاء سهوا وليس بها أحد .. فإن شاء الله يكون فى الحجرة الثانية أحد .. أعطوه مطواة دسها فى جيبه .. فى دقائق كان ممتطيا شجرة التوت العالية .. تعلق بأحد فروعها .. مد ذراعه بالمطواة نحو النافذة ليعالج مزلاجها .. خربش خشبها وفتته عند حافة المصراعين .. كُسِرَتْ مطواته .. صوت الخربشة المريب لم يثر انتباه الابنة داخل الحجرة .. ولو هدأ صخب المتجمعين بالخارج وأنصت متسلق شجرة التوت لسَمِعَ بوضوح صوت المقص : تك تك تك تك ! لكنه لن يتمكن من رؤية الابنة وهى تضع ثوبها على جسدها .. وتنظر فى المرآة إلى نفسها بعد أن قصرت ثوبها وجعلته يظهر ركبتيها البيضاوين .. ولن يرى أحدٌ ذراعيها المكتنزتين اللتين تخرجان من فتحتين كانتا تتصلان بكمين طويلين ثم انتزعا !

لما هبط المتسلق كان الحماس قد فتر .. وعُرِضَت الاحتمالات .. واقترحت حلول .. وقال صوت :

ــ إذا كانوا لم يموتوا فهم أحياء .. وإذا كانوا أحياء فلابد أنهم يسمعون ولايريدون أن يجيبوا !

ساد صمت .. دارت أسئلة فى العقول .. لماذا وكيف وهل .. و .. ؟ والعمل ؟ أجاب نفس الصوت :

ــ نبلغهم بما جئنا لأجله من مكاننا هذا !

سرت حركة وثارت اعتراضات .. وقيل له أن مثل تلك الأخبار لا تلقى هكذا مرة واحدة .. فلابد من التمهيد .. وإلا ساءت العاقبة !

عادت النداءات التى تخلل اليأس نبرتها .. وعادت الأحجار تؤازرها بخبط النوافذ .. وانتُزعَ فـــرع طويـــل مـــن إحـــدى الأشجار .. ربطوا فى طرفه خرقا مبللة بـــالزيت والجـــاز .. أشعلوها .. قربوها من نافذة ثالثة وأخذوا يصرخون :

ــ حريق .. حريق !

الابن بالداخل يرص الذهب على صورة فوتوغرافية لفتـــاة جميلة .. يضع العقود على عنقها والأقراط على أذنيها .. يقـــف أمام المرآة مرتديا سترة سوداء وربطة عنق فاقع لونها ويســـير ثانيا ذراعه من الكوع كأن هناك يد تتعلق به .. ويدنـــدن بنغـــم حفلات الزواج !

بُحَّ صوت الصارخين بالخارج قبـــل أن يـــنزلوا شـــعلتهم ويطفئوها .. جلسوا وقد أسقط فى أيديهم .. لابد مـــن ابتكـــار طريقة .. ولابد لهؤلاء الأبناء أن يعرفوا بما حـــدث وبصـــورة متدرجة .. فهم مهزوزون خفيفو القلوب .. قال الشـــيخ الـــذى تضئ لحيته الفضية فى الظلام :

ــ صيحوا بأعلى صوتكم : القبر مفتوح .. الذئاب نبشـــت قبر أبيكم !

= أى ذئاب يا شيخنا ؟

ــ لاذئاب ولا غيره .. المهم أن نلفـــت نظرهـــم ونمـــهد للمسألة الأخرى !

وعلت الحناجر : قبر أبيكم مفتوح !

الأصوات تُسْمِعُ نجوم السماء .. لكن أحدا من الأبناء لـــم يسمعها .. حتى ذلك الجالس فى مكتب أبيه بالطابق الأرضى .. بالقرب من الزاعقين .. والذى كـــان مشـــغولا بنفـــخ أوداجـــه و تدوير الكرسى يمنة ويسرة والتلويح بكف يـــزدان خنصـــره بخاتم ضخم .. وإدارة حوار وهمـــى مـــع موظفيـــن وعمـــال ومستأجرين !

لا .. مؤكد ماتوا .. اجتاح القلق الجمع .. وعبارات الشفقة رددتها الألسن .. وبدأت خبطات بفئوس وقضبان حديدية علـــى البوابة لتكسرها .. وجئ بأقرب حـــداد ليعـــالج فتـــح الأقفـــال الضخمة .. واكتظت الطرقات أمام البيت بالناس .. وتبودلـــت عبارات الحزن على الأبناء الطيبين الذين ماتوا حزنا علـــى أب طاغية !

وفُتِحَ الباب الحديدى فاندفعت الجموع تتزاحم .. وارتطمت الأعضاد بأبواب الشقق تفسخها .. وفسخت أبواب الغـــرف .. ودُهِلَ الطالب والمطلوب ! ثم علت تكبيرات .. وطار الخبر إلى من لم يجد فرصة للدخول الى البيت .. والأبناء يرتعشـــون .. تصطك أسنانهم .. و تشرد نظراتهم ..

جمعوهم أمام الشيخ ذى اللحية المضيئة .. الابن القـــابض على وريقاته والابنة ذات الساقين البيضـــاوين والعريـــس فـــى سترته ورباط عنقه الفاقع .. وحتى المتكبر الذى نفخ أوداجة .. وقفوا جميعا يرتعشون و ينتفضون ويتلفتون .. أجلسهم الشيخ .. هَشَّ فى وجوههم .. سألهم عن أحوالهم .. ربت علـــى ظـــهر حامل الأوراق ومسح رأس العريس المزعوم .. بحث فى رأسه عن بداية لحديثه .. نكثت السويعة الماضية وما حدث فيها كـــل غزله الذى كان قد أعده .. تململ الحاضرون كعادة كـــل مـــن يحمل أنباء غير متوقعة ويريد أن يرى وقعها علـــى النـــاس .. تعجل واحد فألقى العبارة التى كان الشيخ قد أشار بها : " فُتِـــحَ قبر أبيكم ! " .. شخصت نحوه ثمانية عيون فزعـــة .. نـــهره الشيخ بنظرة صارمة .. جلس العَجُولُ خَجِلا .. تجرأ صـــوت مفزوع :

– هل أكلت الذئاب جثة أبى ؟

صمت الشيخ الذى تعلقت به الأنظار قبل أن يجيب :

- يا ابنتى أبوك بخير ..
تجرأ صوت مفزوع ثان :
ـ هل يتأذى الميت بنهش الذئاب ؟
صمت الشيخ مدة أطول قبل أن يجيب :
- لا يا بنى .. الحى هو الذى يتأذى
جاء الصوت الثالث :
ـ والحمد لله فأبونا مات !
طالت فترة الصمت أكثر ، وجاء صـــوت الشـــيخ عميقــا رهيبا :
- دُفِنَ أبوكم حيا ! ونحمد الله الذى مكننا من .. .. ..

جرى الأبناء الأربعة .. تركوه يكمل حديثـــه لغـــيرهم .. عادوا إلى ما كانوا فيه .. لكن بالعكس .. فالأوراق تُجْمَعُ كلـــها فى خزينة الأب .. والأثواب تُخاط بها الأجزاء المقصوصـــة .. والذهب يُرْفَعُ من فوق صورة الفتاة الجميلةِ وتُدَسُّ الستزة فـــى الدولاب .. والمكتب يغلق وينتزع الخاتم الضخم من الخنصر .. ليعود كل شئ كما كان .. انتظارا لعودة الأب !

ديسمبر ١٩٩٩





أبوها راض وأنا راض

شعر القاضى تهدل حتى وصل للأرض .. عيناه حمـــواوان متعبتان .. وجهه ينطق بالإعيـــاء .. ضمـــر جســـده وتدلـــت ملابســـه .. معـــذور القـــاضى .. فمنـــذ زمـــن ــ لفظـــــة (طويل) قصيرة على وصفه ــ وهو جالس هكذا .. ولايجـــد الفرصة لترك مقعده !

المرأة الملطخة بالألوان أمامه تدعى أن الرجل " الغلبـــان "
ــ الواقف أمامه أيضا ــ هاجمها .. وخدش حياءها .. و .. !
ــ والله العظيم ما قربت منها !
الصوت المتبجح المعتاد على الانطلاق يلعلع :
= أو أتحرش بك ؟ أتبلى عليك ؟ إصح لكلامـــــك يـــا ... (لفظة بذيئة جدا)
القاضى يدق بمطرقته .. ويتنحنح !
الصوت الناعم المعتاد على التعهر :
= آسفة .. أعصابى منهارة لما فعله معى !
العينان الفاجرتان تسبلان جفنيهما فى دلال ماكر ..
ــ ما رأيك فيما تقوله الشاكية من أنك هـــاجمت منزلـــها و .. .. وباقى ما جاء فى شكواها ؟
= لم يحدث .. أنا لم أرها من قبـــل .. ولا أعـــرف لـــها منزلا !

ــ هناك شهود على ما حدث

= شهود ؟

استدار الغلبان فى ذهول نحوها

= أنا الذى هـــاجمتك ؟ انـــت مخطئـــة .. والله العظيـــم ماحصل .. تأكدى الله يسترك ولا تضيعينى !

ــ أتأكد ؟ وهل أتوه عنك ؟ ثم انها ليست المرة الأولى !

وجهت نظراتها النافذة للقاضى :

ــ لقد تحرش بى قبل ذلك فى البنك .. وطلب منـــى .. .. ياللحرج .. ماذا أقول ؟ و هددنى بتعطيل مصالحى إن لم ألـــب مطالبه .. واشتكيته لمدير البنك ..

= ناد على مدير البنك

جرى إلى صدر القاعة رجل قصير لطيف الوجه باسمه

ــ نعم حدث .. لكننا سوينا الأمر بصورة وديـــة حرصـــا على مستقبله المهنى والعائلى !

عينا المتهم تتسعان وفمه ينفتح فى بلاهة !

= سائقى أيضا رآه وهو يقتحم مسكنى ولما طرق البـــاب لتخليصى منه فر المجرم من النافذة ..

وقف السائق يؤرجح نصفه الأعلـــى ويـــهز ركبتـــه فـــى صفاقة .. ويحكى ..

ــ يا نهار اسود ..

تمتم المتهم

قبل أن ينطق القاضى اقتحمت القاعة طفلـــة تجـــر كلبـــا ضخما من ذيله .. والكلب يعوى متألما .. وعينا الطفلة تقدحان شررا .. وقفت فى تحد ترمق القاضى .. ابتسم لـــها فأشـــاحت بوجهها وأشارت للكلب ..

ــ هذا الحيوان يخدعنى !

تأمل القاضى الكلبَ فإذا هو خاضع .. ذليل .. مرعوب .. يصوصو فى استعطاف ..

= مالى يا بنيتى والحيوانات ؟

ــ ماذا تقول ؟ أولست القاضى ؟ أولست المسئول عن معاقبة المخادعين ؟

= نعم يابنيتى لكنه كلب !

ــ المهم أن تحقق العدالة وترد لى حقى الذى يضيعه هذا المخلوق .. أليس هذا دورك ؟

= نعم .. لكن .. ..

ــ حسنا .. هذا ــ وأشارت للكلب يغلٍ ــ لا يؤدى عمله !

= وما هو المطلوب منه ؟

ــ أن يكون كلبا !

= هو كلب فعلا

ــ بل ينتحل شخصية كلب .. بينما هو فى الواقع إنسان !

= هو كلب .. هذا شئ لايحتاج إلى نقاش ..

ــ إذن أخبرنى لماذا لايتصرف ككلب ؟ إنه يسمح بدخول الغرباء .. ولا يأكل العظم .. ولا يبصبص بذيله حين يرانى .. ولا يميز الروائح عن بعد .. ويصادق القطط .. وفوق كل هذا هو لا ينبح إطلاقا ..

= ربما هو مختلف .. غريب الأطوار ..

مدت الطفلة عنقها نحو أذن القاضى .. وأخفت فمها بكفها آخذة سمت الخطورة وهمست :

ــ إنه الشحاذ ! أجرى عملية تجميل وجعل نفسه كلبا ليسكن فى بيت الكلب ويأكل طعامه !

ارتد القاضى بجذعه للوراء مدهوشا ..

= جراحة تجميل ليصبح كلبا ؟

ــ نعم .. ليسكن ويأكل ..

هتف القاضى :
= أين المساعدون ؟
رد صوت من خارج القاعة :
ــ نعم
= أقبلوا فورا
جاء صاحب الصوت متبرما
ــ نعم
= أين زملاؤك ؟
ــ ملوا ! سئموا ! خرجوا يبحثون عن عمل آخر !
= عمل آخر ؟ وما له عملكم ؟
ــ ممل .. نجلس هكذا عن يمينـــك وعــن يســارك دون داع .. شئ مميت !
= إنه عملكم ..
ــ ومللناه .. ماذا فى هذا ؟
= ما الذى مللتموه فى عملكم ؟
ــ الجمود .. ثم أين هو العمل الــذى نعملــه ؟ ألا تــرى هؤلاء الشاكين .. إنهم واقفون أمامك منذ دهـــور .. ولا أحــد منهم قد حللت مشكلته !
= تتمردون على ؟
ــ نريد أن نعيش .. نتحرك .. نفكر .. إلى متى تريــد أن تحبسنا إلى جوارك ؟
= لكن من سيساعدنى ؟
ــ نحن لسنا ناكرين للجميل .. سنرتب لك من بيننـــا مـــن يساعدك إلى أن تعثر لنفسك على مساعدين جدد ..
انبرى رجل عابس الوجه أسود الجبين وقال بغلظة :
ــ نحن نساعدك ..

وتواتر خلفه رجال علـــى شـــاكلته .. تطفـــح وجوهـــهم بالكراهية .. ترددت نظرات القاضى بينهم فى حيرة ..

هبطت سحابة صغيرة وحطت فى أرضية القاعة فلم يسـمع لها صوت .. تمدد جسمها حتى ملأ كل فراغ القاعة .. أخرست الدهشة الجميع حتى قطع صوت القاضى الصمت ..

ــ لماذا نزلت إلى هنا ؟

= ماذا أفعل وأنت لم تعد تطلع لنا ؟

ــ مشاكلهم هنا لاتنتهى !

= وقد امتدت إلينا !

ــ إليكم ؟!

صوت السحابة الناعم الجميل جعل جميع من فى القاعـــة ينامون فلا يسمعون شكواها .. هدأت مشاعر القاضى .. منـــذ متى لم يقابل واحدا من تلـــك المخلوقـــات العذبـــة ؟ أغرقتـــه صراعات سكان العالم السفلى وشغلته ..

= جئت حاملة مطلبا من إخوانى وجيرانى

ــ تفضلى

= لقد ضاق علينا عالمنا .. وصارت المخلوقات الســـفلى تصنع أشياء تقذفها إلى وطننا حتى ازدحم وصـــار مزعجـــا .. خانقا .. صاخبا

تنهد القاضى مهموما وأومأ برأســـه مؤيـــدا .. فتشـــجعت السحابة وعرضت مطلبها ..

= لذلك نريدك أن تفصل بحاجز بيننا وبينهم ..

أفاق القاضى .. اهتزت رأســـه مـــن المفاجـــأة .. بينمـــا استطردت السحابة

= وليعش كل منا فى عالمه .. بحلوه ومره ..

فرك القاضى جبهته .. وقد ساءه أن يضطر إلى خـــذلان السحابة اللطيفة ..

ــ يستحيل فصل هذا العالم عن عالمكم .. إنهم يســتمدون حياتهم منكم ..

= حياتهم هى التى تعنيك فقط ؟ حتى وإن كــانت تقضـــى على حياتنا ؟ أين العدل إذن ؟

اربد وجه القاضى .. ولوح للسحابة بسبابته ..

ــ أتتهميننى بالظلم ؟

استيقظ جميع من فى القاعة .. وإذا السحابة تلملم أطرافــها وتحلق ..

= هل سأظل العمر كله أنتظر حقى ؟

صاح الصوت المتعهر فى نفاذ صبر ! بينما كــان يعــبر القاعة اثنان فى ملابس ملونة مزركشة يركبان فـــى أرجلــهما سيقانا خشبية طويلة جدا .. لم يلتفت إليهما أحد ..

كلمات وعبارات بلغات عدة تتلاطم وتتبارز .. أشــخاص يدخلون القاعة مشتبكون .. كــل منــهم يمســك بــالآخرين .. يتحركون ككتلة واحــدة .. وتتصــارع ألســنتهم المختلفــة .. يدهسون فى زحفهم العشوائى بعــض الموجوديــن بالقاعــة .. تعالت الأصوات تنبههم وتستغيث بالقاضى .. الــذى لا تثــير مطرقته أى احترام فى نفوس المتصارعين .. حتى صوته الذى هدر محذرا إياهم من غضبته لم يحرك فيهم جارحــة ! الكتلــة البشرية تندفع أماما .. ثم خلفا .. ثم يسارا .. ثم تتقــدم تتقــدم تتقدم .. وتكاد تخرج من القاعة فإذا بــها تندفــع ثانيــة إلــى وسطها .. تناثر المصابون تحت الأقدام الطائشــة .. والطفلــة تنتف ذيل الكلب بتشفى .. ملأ الذعر القاعة والقــاضى حــائر

لايدرى ماذا يفعل .. صار الاهتمام الأعظم هـــو توقــع اتجـــاه زحف الكتلة للابتعاد عن طريقها .. ارتطمت الكتلـــــة مرتيـــن بمنصة القاضى الذى جلس واضعا رأسه بين كفيه ! والصــــراخ يملأ المكان حوله .. رفع القاضى رأسه ونظر بعينين كليلتين .. أشار للموجودين بيده وناداهم إليه .. التفت نحوه كل منهم بعيـن واحدة بينما الأخرى تتابع اندفاعات الكتلة الطائشة .. أشـــاحوا بأيديهم نحو القاضى حين كرر نداءاته .. أداروا له ظهورهم .. دقات المطرقة لم تعد تسمع بعد أن امتلأت القاعـــة بالتعليقـــات العالية .. بطريقة غامضة وغير مفهومة ظهر مؤيدون لوجـــود الكتلة المتصارعة .. واحتدم الحوار بينهم وبين الرافضيـــن .. وزاد على أصوات الحناجر أصوات اللطمات والرفسات ..

هبطت السحابة ثانية .. كست منصة القـــاضى برذاذهـــا اللطيف .. لم يلحظ أحد نزولها .. غبار الصراع أعمـــى كـــل الأعين ..

ولما طارت السحابة ثانية .. لم يكن القاضى جالسا علـــى منصته !

أغسطس ١٩٩٩





قلوب مغشوشة

خرج الولد حمادة بنفس الملابس التى يرتديها كل يـــوم .. والتى نسى هو نفسه ماذا كان لونها .. والتى ترفــض أمــه أن تغسلها وتقول له :

— إيش تعمل الماشطة فى الوش العكر ؟

حمادة يريد لملابسه أن تكون أقل بشـــاعة .. و البنطلــون الذى أعطته له السيدة التى تسكن فى الدور السابع .. دفنته أمــه فى قعر الدولاب وقالت له :

— إبعد عنه بزيتك وشحمك !

تذكر حمادة البنطلون وهو ذاهب إلى الورشــــة .. وقــال لنفسه :

" ربما تحفظه أمى للعيد "

وطمأن نفسه بأن جسد أحد من إخوته لن يتلاءم معــــه .. " على طويل جدا .. ومصطفى سمين .. إذن هو لى ! "

أزاح حمادة باب الورشـــة لأعلى .. وتريث برهـــة ينظـو إليها .. وجـــهه لايحمـــل تعبـــيرا .. أو ربمـــا يحمـــل كـــل التعبيرات ! مفاتيح الصواميل معلقة على الحائط ومرتبة حســب مقاساتها .. المنضدة عليها مفكات ولقم وعلـــب وكراكيـــب .. توجه حمادة إلى حيث صنبـــور الميـــاه وحـــوض الاســـتحمام

وخرطوم الهواء الطويل .. أزاح المطرقـــة والعتلـة الحديـد بقدمه .. فى تكاسل ركب خرطوم مياه فى الصنبور ثـــم فتـح الصنبور وجعل يرش المياه بدون اهتمام .. ثم بدأ يزيح الميــاه بمساحة متآكلة إلى خارج الورشة فتكونت بركة صغيرة سـوداء أسفل الرصيف ..

قبع حمادة على حجر بجوار الباب .. بعد أن لـم القلـوب القديمة لإطارات السيارات ورصها فى ركن .. وجلس ينتظـر الأسطى الذى جاء صاخبا هائجا بدون سبب واضح .. وأرسـل حمادة إلى شريكه الميكانيكى الذى يشغل جزءا من الورشة :

ـــ قل له نقفلها أحسن !

حمادة طبعا لم يقل له هذا لكنه عاد مشتوما وبداخله شعور الشماتة المعتاد الذى ينتابه كلما تشاحن الآخرون !

الصبيان يجرون هنا وهناك .. يناولون ويعملون بأيديـــهم ويفكون ويركبون .. والأسطى وشريكه يدخنان الشيشة ويديران العمل بلسانيهما الطويلين ..

فإذا جاءت سيارة طويلة عريضة مرفوعـــة المؤخـرة .. نهض الأسطى .. لكن بمجرد أن تترك إطارها للتصليح وتذهب ينادى أى " حيوان " من صبيانه ليتولى المهمة ..

اعتاد حمادة أن يستبدل قلب الإطار التالف بقلب آخر أقـل تلفا .. رغم أن الزبون يدفع للأسطى ثمن قلب جديد ! والشـىء الذى كان يدهشه أن الأسطى لم يكن يفعل هذا مع كل الزبائن .. وقد حاول حمادة أن يفهم سر هذا التمييز بيـــن الزبـائن فلـم يستطع !

واليوم غادر الأسطى الورشة ليتناول غداءه .. بينما جلـس الصبيان أمام أقراص الطعمية وأرغفة الخـبز السـوداء ككـل

يوم .. وأخذوا يطلقون نكاتهم البذيئة على الرائح والغـــادى .. وكانت أصواتهم تزداد وقاحة إذا كانت المارة فتاة .. فإذا جـــاء زبون أخذوا يهذرون .. وكل واحد يطلب من زميله النهوض .. ولابد من حدوث أحد أمرين .. أن ينصرف الزبون قرفانــــا .. أو يزجرهم بعنف فيهبون جميعا ! وقد حـــدث مـــرة أن رآهـــم الأسطى فضربهم جميعا بلوح خشب لاعنا آبـــاءهم وأجدادهـــم ومن نفضهم ! ولم يفهم حمادة لماذا يغضب الأســـطى لأنـــاس يغشهم ؟!

أشارت بأناملها الطويلة للصبيان الجالسين .. وخشخشـــت لهم بالمفاتيح .. بدأ الهذر والتباطؤ .. تذكر حمادة علقـــة لـــوح الخشب فنهض يمسح كفيه فى بنطلونه المزيت قبل أن يتنـــاول المفاتيح ويفتح حقيبة السيارة ويخرج الإطار .. بصوت يرتعش رقة قالت :

ـــ غير القلب يا ...

صاحت أصوات نشاز :

ـــ حمادة .. حمادة يا أبلة

لم يكمل حمادة طعامه وبدأ فى فك الإطار فورا .. رمـــى القلب جانبا وأحضر قلبا آخر به رقعة واحدة فقط .. وقبـــل أن يحشره داخل الإطار أصبح به رقعتان ..

تناول الأسطى بعد عودته .. ثمن القلب الجديد (القديـــم) من أحد صبيانه فدسه فى جيبه .. بينما جلس حمادة على الحجر يتأمله .. كان يريده أن يغادر .. هو دائما يريده أن يغـــادر .. يشعر بالأمان وهو بعيد .." متى ستصبح ؟ هيا ..اشـــتم " هـــو دائما ينتظر أن يشتم !

عاد لأمه حاملا جنيها إضافيا منحتـــه لـــه ذات الأنـــامل الرقيقة .. دسته أمه فى صدرها قائلة :

" ياما جاب الغراب لأمه "

ابتسم حمادة لدعابة الأم ..

ــ أريد البنطلون يا امه

= هو لمصطفى

هوى قلب حمادة ..

ــ مصطفى كالبرميل ولن يدخل فيه ..

= سنوسعه ..

ــ لكنه على مقاسى ..

= ستشحمه و ستزيته !

ــ والنبى يا امه

= مصطفى حلاق ياحمادة وشغله نظيف ..

ــ أريد أن ألبس شيئا نظيفا .. نفسى يا امه

= الملابس معك لاتكون نظيفة أبدا !

ــ هذا بسبب العمل فى الورشة يا امى ..

= دع النظيف إذن لمن يعمل عملا نظيفا

" ملعون أبو الورشة "

وقفت سيارة صاحبة الأنامل الرشيقة فى اليوم التالى أمـــام الورشة .. جرى حمادة نحوها مبتسما .. عبست فى وجهـــه .. اختفت رعشة صوتها الجميل :

ــ امش هات الأسطى

اضطرب القلب الصغير

الصوت الرقيق صار مريعا

ــ سأقفل لك ورشتك .. سأخرب بيتك !

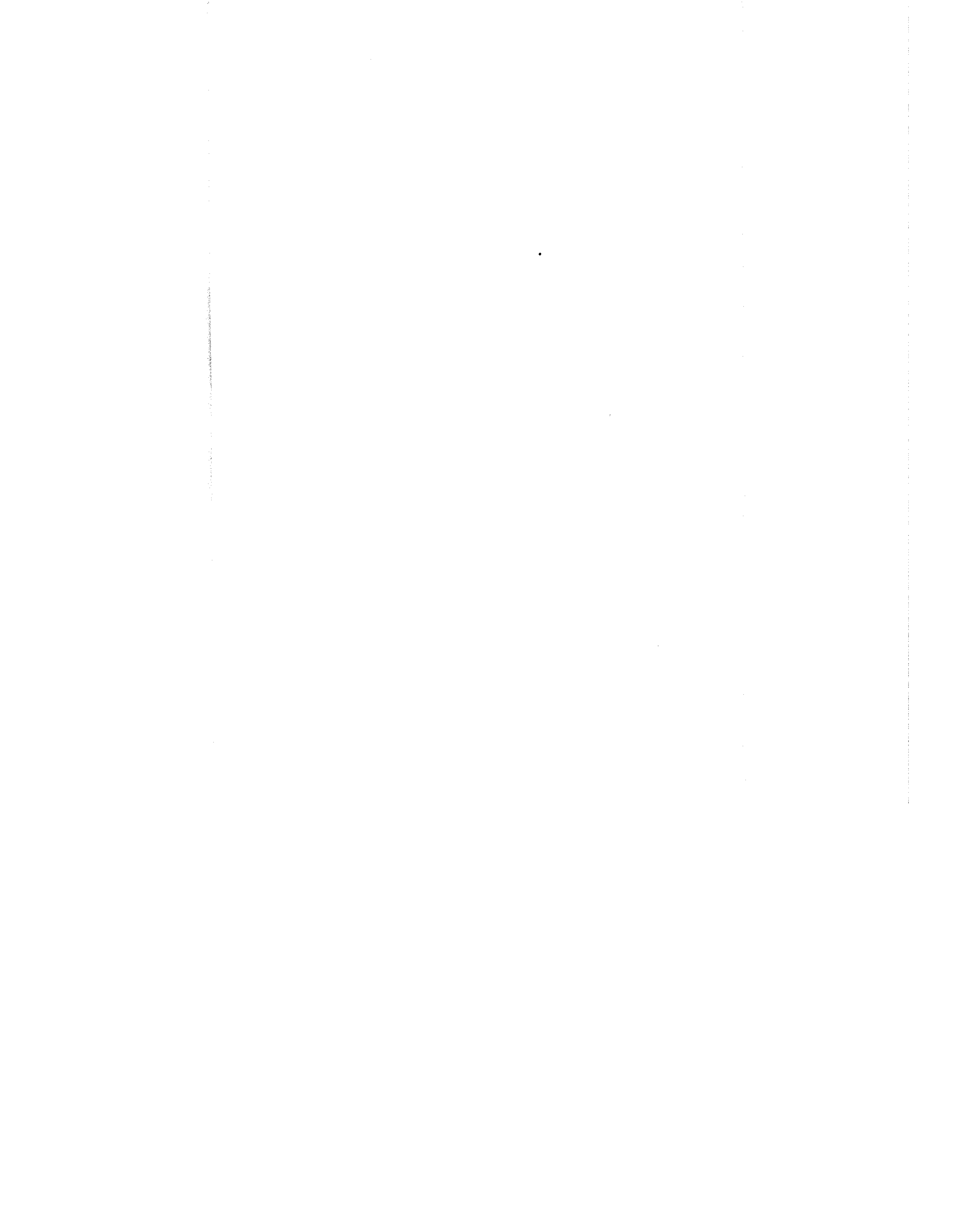
صوت الأسطى صار راجيا

= أنا تحت أمرك يا أستاذة .. ماذا حدث ؟

ـ ماذا حدث ؟ اسأل الحرامية الذين تشغلهم !
سقط قلب حمادة فى قدميه .. تراجع مجعدا جبهته رافعـــا ذراعيه ليحمى وجهه من الضرب ..
ـ والله ما أخذت شيئا
لحقت به كف الأسطى الغليظة وجرته .. وعاد الصـــوت خشنا
ـ ماذا عملت يا ابن ال (...)
= والله ما عملت شيئا !
كومه بركلة من قدمه المعلقة بساق فيل ..
بدأ صوت ذات الأنامل يرق وتعود له رعشته
ـ أطرده .. سينفر زبائنك
= ماذا عمل يا أستاذة ؟
ـ وضع لى قلب إطار قديم على أنه جديد ..
= يا نهار أبوك أسود !
طاخ .. طراخ .. بوم
ـ حقك على يا أستاذة
تكوم حمادة فى ركن الورشة يبكى ويتوجع .. والأســـطى يدخن الشيشة ويحكى لشريكه :
ـ ابن الكلب كان سيخرب بيوتنا
= عيل .. غدا يتعلم
ـ حمار .. مائة مرة أقول له : نمر القاهرة قلب جديـد .. الجيزة قلب جديد .. نمر الصعيد واسكندرية قديم .. فلن يـــأتوا من آخر الدنيا لمشاجرتنا !
= حصل خير
ـ نعم .. الحمد لله .. ربنا ستر !!

أكتوبر ١٩٩٩





صفحات من تاريخ كفر الشهاينة

– ١ –

لم تبق غير خمسة أيام وتقع الفاس فى الراس ..
ماذا أستطيع أن أفعل ؟

صورة جمـــال عبد الناصر مازالت معلقة علــــى الجــدار الطينى فى الدار .. اصفرت الصورة .. انثنت أطرافها داخـــل زجاج البرواز المشروخ .. ومـــازالت معلقـــة .. جـــدى فـــى الصورة يمد يده ليتسلم عقد تملك الأرض .. ذراعه الممـــــدودة لآخرها .. وميل جذعه للأمام يظهران كم كان متعجلا القبـــض على الورقة .. وأنا صغير سألت نفسى :

هل كان جدى يتعجل الحصول علــــى الأرض ؟ أم كـــان يتعجل التقاط العقد لأنه لايصح أن يتمهل ويد الرئيس ممـــــدودة إليه ؟

سألت جدى يوما :

ــ ماذا تغير بعد أن حصلت على الفدادين الخمسة ؟

نظر إلى دهشا وقال فى استغراب :

ــ أصبحنا أصحاب طين !

نصيب أبى من طين جدى .. بعد أن فرق الأرض على أبنائه الستة عندما تقدم عمره وتدهورت صحته .. كان عشوين قيراطا ملكا .. أما باقى الأرض التى نزرعها فكانت مؤجرة من الشيخ على .. من قبل أن أولد ..

لما كنت صغيرا ــ أنا وشاهين صديقى ــ كنا نقطع الطريق الطويل المترب .. ثم نعبر الأسفلت .. ونسير فى طريق مترب آخر حتى نصل للمعدية .. فنعبر الرياح إلى المركز .. ونسير فى شوارعه نشم رائحة الطعمية والفول المكمور داخل قدوره المنتفخة .. حتى نصل إلى المدرسة .. كنا نسلى أنفسنا بالحديث .. سألته :

ــ لماذا لاتعلقون صورة جمال عبد الناصر وهو يسلمكم عقد تملك الأرض ؟

أجابنى :

ــ جدى لم يكن عامل زراعة

أشفقت فى نفسى على عائلة شاهين صديقى

فى بعض الليالى .. حين نتحلق حول أبى ليحكى لنا عن الباشا شاهين .. الذى أسمى نصف أهالى كفرنا أبناءهم شاهينا على اسمه .. والذى كان جدى وأبى وهو صبى أجيرين فى أرضه .. كان جدى الجالس على الفرن ملتحفا بغطاء رمادى خشن .. يطل علينا بعينين ذابلتين .. ويستمع لأبى فى رضا .. يمتص عذوبة الماضى الجميل .. ويشرق وجهه المتغضن بنفحات الأيام الندية ..

" بنات الباشا شاهين كن كحوريات الجنة .. يملأن الكفر نورا .. وكنا نستمتع بملاحظتهن .. ونشغف بسماع أصواتهن المغردة اللينة .. وكلماتهن الخفيفة .. وكان الباشا شاهين ــ حين تنزل زوجته وبناته الكفر ــ يفرق علينا القماش

والطواقى والمناديـــل المطرزة بالخرز .. حتى لو نزلن الكفـــر كل أسبوع ! "

جدى يجـــتر ذكريـــات المـــاضى الطيـــب .. لا تفارقـــه ابتسامته .. ولانسمع له صوتا مادام أبى يتحدث عن الباشـــــا وأســـرته إلا فى حالة واحدة .. إذا ذكر أبى اســـم شـــاهين مجردا من لقبه " الباشا " ..

ــ الباشا شاهين ياابو ابراهيم !

كان جدى يقولها فى عتاب !

كثيرا ماسألت نفسى :

ــ لماذا وافق جدى أن يأخذ من أرض الباشـــا مادام يحبـه كل هذا الحب ؟

...

لم تبق ســـــوى خمســـة أيام وتقع الفـــأس فى رأس أبـــى كما وقعت من قبل فى رأس الباشا ..

ســـألنى شـــاهين صديقى :

ــ ماذا ستفعلون ؟

ضحكت وقلت :

ــ كما فعل الباشا !

نظر إلى وسكت !



— ٢ —

في احدى الليالى السـابقة لوقوع الفأس فى رأس أبـى ..
كنا جالسين فى الدار نتناول عشـاءنا .. خبزا جافا .. وجبنـا
قريشا .. وأعوادا من الجرجير والفجل .. سألت جدى :

ــ ماذا كنتم تتناولون فى عشـائكم وأنت فى مثل عمـرى
ياجـدى ؟!

ابتسمت عيناه الطيبتان :

ــ ماذا تظن ؟ الأوز المحمر؟

تدخل أبى قائلا :

ــ كنا نتناول وجبتنا الدسـمة فى العشاء .. وفـى وقـت
الغذاء نأكل أى لقمة ! فلم نكن قد بنينا هذه الدار بعد .. وكـان
بين الأرض والدور مسـافة طويلة من الحقول الواسـعة ..
فكنا نأكل فى الغيط لقمة بجبنة حتى نعود للدور مع الغـروب ..
فنتناول عشـاءنا الدسـم !

ضحك جدى بصوت مبحوح واهن وتسـاءل :

ــ عشاؤك الدسم ؟

ثم أردف وقد دمعت عيناه الذابلتان من الضحك :

ــ كانت جدتك تطهو لنا أحيانا بالطماطم .. وبدون لحم ..
كانت رائحة طبيخها تفتح النفس .. وفى بعض ليـالى الجمـع
كانت تذبح دجاجة أو إوزة و " نزفر " أيدينا وأفواهنا بها !

ــ أمى أيضا تطهو لنا باللحم أو الدجـاج يـوم الخميـس
ياجدى ..

ــ الناس هم الناس يا ابراهيم ..

تســـاءلت فى نفسى : لماذا يبدو جدى فى الصورة ســعيدا غايـــة الســـعادة ؟

عاود أبى الحديث :

ـ لكنا اليوم نعيش وســط أرضنا .. بنينا هذه الدار فيــها وصرنا نأكل طبيخا فى الظهر كما يأكل أهل المدن .. ثم نخرج ثانية الى أرضنا .. الله أعلم بما ســيحدث غدا ؟

أبى يعود لنفس الموضوع دوما .. جميع الطرق توصلـــه لنفس النقطة .. الفأس التى ســوف تقــع فــى رأســـه بعــد أيـــام ..

قال جدى فى ضيق :

ـ وهل قال لك أحد أن تبنى بيتك فى أرض بالايجار ؟

رد أبى

ـ الكل بنوا مثلى

قال جدى منهيا الحديث :

ـ لم تروا الا تحت أقدامكم ..

سألت نفسى : أين ذهبت الحقول الواسعة التى يقول أبـــى أنها كانت تفصل بيننا وبين دارنا القديمة المتهدمة .. جميعـــها صارت بيوتا ؟ وسكان هذه البيوت كلها .. أين أرضـــهم التـــى يزرعونها ؟! وهل كان الباشا شاهين سيبنى كل هـــذه البيـــوت على أرضه الخصبة لو ظل هو صاحبها ؟

أفقت على صوت أبى يهمس ..

لا أحد يحمل الهم غيرى !

فى الليلة السـابقة لوقوع الفأس فى رأس أبـى .. رأينـا علىشـاشة التلفزيون الجرافات وهى تهدم المنـازل وتطـرد سـاكنيها ..
سـألنى جدى :
ـ أين يحدث هذا ياابراهيم ؟
= فى اسـرائيل ياجدى !
رد وقد اطمأن :
ـ ظننته فى كفر الشهاينة !
سـمعنا صوت أبى :
= غدا يابا .. غدا
سـألنى جدى ..
ـ لماذا يطردونهم ياابراهيم ؟!
سـمعنا صوت أبى :
= منهم لله !
رددت على جدى ..
ـ لأنهم يقاومون السـلطات الاسـرائيلية المحتلة .. هكذا قال لى شـاهين ياجدى .
= يطردونهم لأنهم يطالبون بأرضهم وحقهم ؟!
ـ نعم ياجدى ..
= الدنيا مليئة بالعجائب .. هل تدرى ياابراهيم ماذا فعـل الباشا شاهين لما أدرك أنهم سـيأخذون منه أرضه ؟
ـ ماذا يا جدى ؟!
= باعها بنفسه لناظر زراعته الشيخ على وأقاربه وأولاده !
ـ الشيخ على الذى سيتسلم أرضه منا غدا ؟

= نعم ياولــدى .. اشترى هو وأقربـــاؤه معظــم أرض الباشا .. بدون مقابل .. ثم أجروها لنا ولغيرنا ولم يســتطيعوا الانتفاع بها بعد ذلك ..

صرخ أبى :

ـ يكفى يابا .. هل ســرقناهم ؟! هل ســرقنا الباشــا ؟

رد جدى فى تسليم :

= لا ياولدى !

استمر أبى :

ـ هل غششــت وزورت لأحصل عليها .. ألم يكن هــذا حقى الذى أعطتنيه الحكومة ؟! والارض المؤجرة اذا لم تكــن حقى .. لماذا تركوها لى ؟!

رد جدى :

= اهدأ ياولدى

استمر أبى :

ـ لماذا تركونى أظن أنها أرضى حتى خيبت أولادى ولــم أعلمهم فى المدارس ليزرعوا معى الأرض ؟ لمــاذا تركونــى أتصرف وكأنها ملكى مادامت ملك غيرى ؟

رد جدى وقد اغرورقت عيناه بالدمع ..

= هى الدنيا ياولــدى .. يوم لك ويوم عليك ..



لما حكى لى شـاهين صديقى يوما أن صـاحب مصنـع السـجاد الذى يعمل به يمتلك طائرة قفزت الى ذهنى صـورة الباشـا شاهين .. ولما قال لى أنه أغنى من الحكومة .. ظننـت أن صديقى يريد أن يتباهى أمامى .. وأن يعيرنى بجهلى وبأننى لم أكمل تعليمى فى المدارس مثله .. ولم أعمل فـى المصـانع أو أعش فى المدن ..

لكنهم الآن يقولـون نفس الكلام .. ونحن نـترقب قـوات الأمن التـى سـتنزل كفـر الشـهاينة لتنـتزع الأرض مـن مستأجريها .. أبى جالس فى الأرض السـوداء الطينة واضعـا رأسـه بين كفيه .. وجدى متكـوم الى جواره يرقبه بقلـب مفطور .. والناس لا يقر لهم قرار .. أرسلوا أفرادا يسـتطلعون ظهور قوات الأمن الزاحفة الى الكفر ..

تخيلت الباشـا شـاهين حين علـم أنـهم سـينتزعون أرضه .. هل جلس هكذا فى الطين مثل أبى واضعا رأسه بيـن كفيه ؟ أم جلس على الكرسى الفخم مسـندا مرفقيه الى المكتب الفخم واضعا رأسه بين كفيه ؟! والشـيخ على .. مـاذا كـان يفعل حين كانت تعوزه النقود فى زيجات أبنائه ويـأتى لأبـى راجيا اياه أن يبيع فدانا من الأرض التى " يركبها " .. فـيرفض أبى ! هل كان يضع رأسه بين كفيه فى اسـتسلام ؟

الكلمات تتطاير إلى أذنى :

ــ قم يا أبا ابراهيم .. لاتجلس هكذا فى وسط الأرض ..

صوت جدى الواهن يتوسـل :

ــ اخز الشـيطان ياولدى من أجـل خـاطرى وخـاطر عيالك ..

رأينا أخي مصطفى يجرى معفرا التراب حوله مشـــــمرا جلبابه وهو يصيح :

ـ جاءوا يابا .. جاءوا يابا ..

اتجهت الأنظار ناحيته .. التراب الثائر خلفه ينذر بزحـف حشـود القوات التى سـتقتلعنا من الأرض .. جذبنى شـاهين من ذراعى لما انتفضت مندفعا ناحيتهم .. أبى مـازال مخفيـا رأسـه بين كفيه .. نهض جدى :

ـ قم يا أبا ابراهيم .. اخز الشـيطان يا ابنى ..

" اذا كان أبى ينوى المقاومة .. فلأفعلها أنـا .. أبـى لا يحتمل خبطة من تلك الهراوات الغليظة "

تأتينى كلمات كثيرة .. أسمعها ولا أعيها ..

ـ أين كانوا طوال السنوات الماضية ؟

ـ لكل شيء آخر فما أكثر ما انتفعوا بهذه الأرض ..

ـ خذ الأرض .. هات الأرض .. كلام فارغ ..

ـ وهل كانت أرض الشـيخ على حقا ؟ أقسـم بالله أن أبا ابراهيم أحق بها منه ..

ـ اذن فكل مستأجر أحق بالشـيء الـذى يؤجـره مـن صاحبه !

نزل الشـيخ على وأولاده من السـيارة ..

ونزلـت قـوات الأمـن بـالدروع والـهراوات .. و.. السـلاح !

انتفضت مرة أخرى فاشـتدت قبضـة شـاهين علـى عضدى ..

أطلت علينا وجـوه الضبـاط المتغطرسـة .. ووجـوه العسـاكر التى تشـبه وجوهنا .. التف اخوتـى حـول أبـى الجالس فى وسط الأرض واضعا رأسه بين كفيـه .. اخوتـى

يحملون عصيا غليظة وينظرون فى تحفـــز .. مـــازال جـــدى يتوســــل ..

ــ لاجل خاطر العيال يا أبا إبراهيم !

الصمت أغرق كل من كانوا يثرثرون ..

" لماذا لم يفعل الباشـــا شـــاهين مثلما فعل أبى وقد كــــان هو صاحب الأرض وليس مستأجراً لها ؟ "

نزلت الجرافات إلى الأرض لتحرث الذرة التى سارع أبــى بزراعتها كى يؤجل تسليم الأرض حتى جنيها ..

اشـــتدت قبضة شـــاهين على ذراعى ..

الناس تردد .. لاحول ولاقوة إلا بالله ..

" إن كان أبى سيفعلها فلأفعلها أنا .. مَنْ لإخوتى بعده ؟ "

أترقب أن يرفع وجهه لأرى ما ينويه ..

خفضت الجرافات أسـلحتها لتبدأ فــى ســـحق الـــزرع وتقليب الأرض .. تأهبت .. توترت كل عضلاتى ..

بدأت الجرافات تهتك الأرض ..

رفع أبـــى وجهـــه .. عينـــاه حمـــراوان .. دامعتـــان .. مستســـلمتان ..

ألقيت عصاى .. جريت أرفعه مـــن أمـــام الجرافـــات .. وجدى يهمس مواســـياً ..

ــ لا تحزن ياولدى .. قد تعود لك يوماً ..

مارس ١٩٩٨



حصان حلاوة

بكت وصرخت حتى اجتمع الناس حولنا ..
ـ يريد أن يخرج ..
اتسعت العيون ورمتنى بنظرات مذعورة ..
استأنفت زوجتى :
ـ يريد أن يأتى بحصان حلاوة !
ضربوا كفا بكـف .. هـزوا رؤوسـهم ومصمصـوا شفاههم ..
أشارت إلى الكيس الذى أحمله :
ـ انظروا هاهو يحمل زاده ليبدأ رحلته .. سـيرحل .. سيتركنى وأولاده نموت جوعا ولن يعود ..
أولادى متشبثون بأمهم .. أنصاف عرايـا .. رؤوسـهم معفرة .. ضلوعهم نافرة .. دموعهم تختلط بمخـاط أنوفـهم الذى يمسحونه بظهور أكفـهم السـوداء .. لابـد وأن آتـى بالحصان الحلاوة .. سيذوق أولادى طعم السكر .. سأكسـر لهم ذيله وأرجله وأدس قطعة قطعة فى أفواهـهم الصغـيرة المحرومة .. ستتلوى ألسـنتهم فـى تجـاويف أفواهـهم .. ستندهش خلايا التذوق من الطعم السكرى !
جذبتنى يد من ظهرى فتمزق قميصى البالى .. زوجتـى تمنعنى ويزداد صراخها .. حاولت أن أتخلص من قبضة يدها

التى أطبقت على معصمى فلم أستطع .. تخشب كفها الأسمر الخشن المعروق على معصمى ..

ـ لمن ستتركنا ؟

نظرت إلى الوجوه الكثيرة المحيطة بنا .. رموا نظراتهم إلى الأرض وأحنوا رؤوسهم .. جررتها معى .. هى تمنعنى وأنا أجرها .. مات كفها وتصلب على معصمى .. لابد وأن آتى لهم بالحصان الحلاوة .. سأصعد الجبل .. وحين أهبط إلى الجهة الأخرى سأكون فى المدينة الكبيرة .. وسآتى بالحصان .. سأذيب قطعة منه فى الماء وأصنع لأولادى الألماسية الحمراء !

ـ لانريد .. الجبل كله وحوش ..

نبهتنى كلمات زوجتى .. كنا قد ابتعدنا عن المتفرجين .. صاروا نقاطا سوداء بعيدة .. وأبنائى توقفوا واحدا تلو الآخر عن متابعتنا .. أراهم على أبعاد مختلفة .. وزوجتى التى مازالت تقبض على معصمى سقطت وصرت أجرجرها على الأرض فيحفر الحصى فى جسمها خطوطا دامية .. وهى تردد : الوحوش الوحوش ! لكن سكينى معى .. وسأصعد الجبل .. وسأقتل أى وحش يقابلنى .. لن أعود بغير الحصان الحلاوة ! سأحكى لأولادى حكاية الفارس راكب الحصان الذى انتزع مكانته بسيفه .. سأقول لهم كيف واجه أعداءه وقهرهم .. وكيف رفع رأس أمه الشريفة ؟

أوقفنى فجأة شئ ما .. رأس زوجتى ارتطم بحجر ضخم .. مازال كفها مطبق على معصمى .. انسلخ جلدها من احتكاكه بالأرض .. وقفت أتأملها .. بدأ رأسها ينزف .. رجوتها :

ـ دعينى وسأعود .. صدقينى

اتسعت حدقتاها .. أصدرت أنينا موجعا .. أكدت لها :
ـــ سأعود ..
ارتخت قبضتها .. خلصت معصمى منـــها .. أصابعـــها تركت علامات زرقاء على جلدى .. همست فى أذنها :
ـــ انتظرينى هنا
تركتها عند سفح الجبل .. وبدأت أصعــــد .. أخرجـــت سكينى من الكيس وأشهرته مستعدا لقتل الوحوش .. عينــــاى تدوران فى كل اتجاه .. أذناى تتحفزان لالتقاط أى صــوت .. وكفى مطبق على السكين .. الشمس ترمقنى قبل أن تغيــب .. تتشبث بحافة الأفق وتنظر إلى فى دهشة .. ســـأحضر أكــبر حصان ليستطيع أطفالى تأمل ملامــــح الفـــارس المغـــوار .. سأريهم سيفه المشهر .. وذراعه القوية .. سيرون فى عينيــــه الشجاعة والبطولة .. سيتعلمون منه كيف يمتطــــون ظـــهور الجياد ويقطعون رؤوس الأعداء .. وكل هؤلاء الخائفين الذين تركتهم ورائى سيعرفون أن هناك شعورا آخر غير الخــــوف يمكنهم أن يشعروا به .. لن أنظر خلفى .. زوجتى ملقاة عنـــد السفح .. لن أسمح لشفقتى أن تمنعنى عن الهدف .. ســـأعود سريعا .. سأحملها على كتفى .. سألملم أطفالى .. ســـألتقطهم واحدا واحدا .. وحين نصل إلى أطـــلال عشـــتنا .. ســـأفتح الكيس .. وأخرج الحصان .. أكاد أسمع صهيله .. وصيحـــات الفارس أبى زيد فى ساحات الشرف .. سيرى الجميــــع كــــره وفره .. وسيتساءلون كيف يتحكم أبـــو زيـــد فـــى حصانــــه وسيفه ؟ لكنهم سيتعلمون !!
هرولت حين بدا أمامى انحدار الجبـــل نحـــو المدينـــة الكبيرة .. تلألأت أمامى أنوارها .. رأيت أبراجها التى تخـــز الهواء فى تأفف لتبعده عنــــها ! جريـــت هابطـــا الجبـــل ..

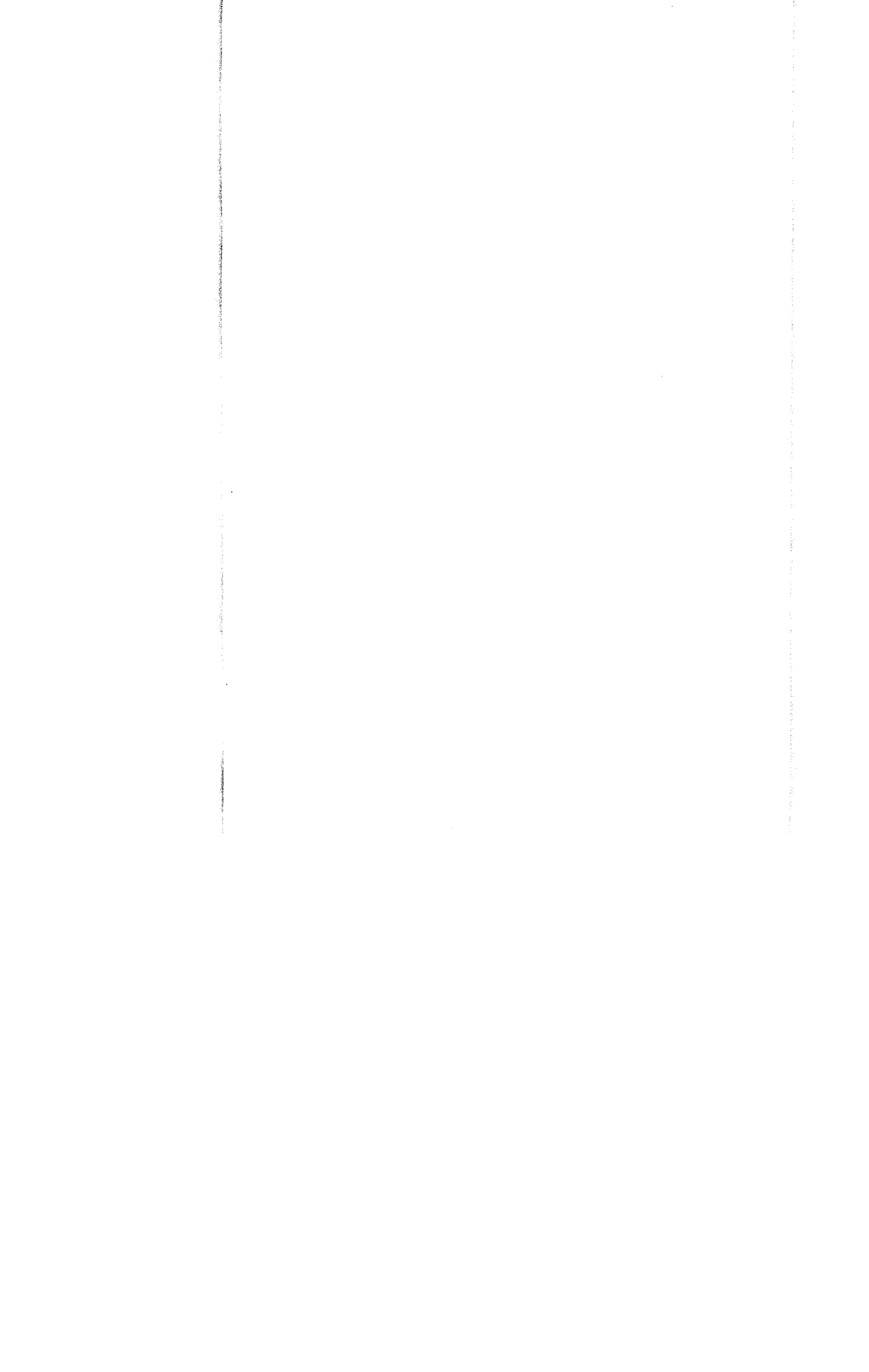
تعثرت .. تدحرجت .. تخبطت فـــى الأحجـــار .. ارتطمــت بجدار أبيض عال .. اعتدلت واقفا .. وضعت سكينى الذى لــم أستخدمه فى الكيس . سكينى الذى خافت وحوش الجبل مـــن بريقه !

المدينة الكبيرة سوق .. كلها سوق .. كل شئ يباع وكــل شئ يشترى .. ومن يشترى يبيع ماشــــتراه .. ومـــن يبيــع يشترى ما باعه ! طعام وشراب وملابـــس .. أطفـــالى بـــلا ملابس ؟ جوعى ؟ لكنى لن آتى إلا بالحصان ! أشياء غريبـــة تباع وتشترى .. لاأعرف ما هى ؟ اللامع والمطفأ .. الفــــاتح والداكن .. الكبير والصغير .. لايهمنى .. المهم أن أجد بـــائع الأحصنة .. ألف وأدور .. أعود من حيث بدأت .. تحملنــــى الطرقات الملتوية إلى أماكن غريبة .. يبيعون شعور النســـاء ولحوم الصغار .. يشترون القلوب والأكباد .. أجرى .. أفـــر من رائحة الدم .. تكل قدماى .. أجرجر ساقاى .. لن أستريح فى مدينة الرعب هذه .. سأشترى الحصان وأعـــود فـــورا .. منظر الأحصنة الحمراء أنسانى تعبى .. جريـــت .. رمـــانى البائع بنظرة احتقار قاسية .. أشرت إلى أكبر حصان .. مـــد يده يطالبنى بالمقابل .. قلبت لـــه جيوبـــى الخاويـــة .. قلـت له أننى جئت من وراء الجبل .. حكيـــت لـــه عـــن أطفـــالى وزوجتى .. قلب شفتيه فى قرف وأشار بكفه لكـــى أبتعـــد .. تراجعت خطوتين .. الدموع تتصاعد إلى عينى .. الفرســـــان يرمقوننى بعيونهم الجامدة .. يترقبون تصرفى .. مددت يـــدى فى الكيس .. أخرجت السكين اللامع الكبير .. قدمته للبـــائع .. قلبه بين يديه بتأفف .. مد يده إلى أصغر حصـــــان .. دفعـــه إلى .. هززت رأسى رفضا .. فمد يده بالســــكين .. أخـــذت الحصان الصغير .. تحاشيت النظر إلى عيـــون الفرســـان ..

وضعت الحصان فى الكيـــس .. جريـــت عـــائدا .. أطفـــالى متناثرون فى البرية .. زوجتى ملقاة تحتضـــــر تحـــت ســـفح الجبل .. وحوش الجبل ستشم دماءها النازفة فتســــرع إليـــها وتفترسها .. لكنى سأسرع .. ســــأمتطى حصـــانى وأشـــهر سيفى .. وأقهر جميع الوحوش !

أبريل ٢٠٠٠





تعظيم سلام

" اعترف يا حيوان "
أمرنى الرجل الذى يتدلى من كتفيه عنقودا عنب !
" تكلم أحسن لك "
هو يهددنى .. مندهش أنا لمنظر العنب ..
طراخ !
صفعة دسـمة على وجهى .. جعلته يطـوّحُ ذراعه فيهتز العنب فوق كتفه .. وتسقط منه حبة ..
يدخل رجل يحمل على كتفيه قطفين صغيرين ..
ـ خذ هذا الحيوان وأدبه (وأشار إلى)
يأخذ الحيوان ! خارج الغرفة الجميـع يعلقـون عنبـا .. هاجمتنى رغبـة عارمة فى الضحـك وأصـدرت أصواتـا مكتومة .. التفت إلىّ الرجل ذو القطفين الصغيرين
ـ مابك ؟
= مجرد زغطة ..
أجبته وأنـا أضع كفى أمـام فمـى لأدارى ضحكـى .. وصلنا إلى غرفـة رطبة .. وقفت فيها وحدى بينما انصـرف مصاحبى وأغلقها على ..
" عنب ؟ " .. تساءلت بصوت مسموع .. " ماالذى جـرى فى الدنيا ؟ "

دخل ثلاثة من حاملى العنب .. عـــاودتنى الرغبـــة فـــى الضحك .. لاحظها أحدهم .. سألنى عن سببها ..
ــ أبداً .. هى حالة تصيبنى أحياناً
" ألا يدرك هؤلاء الناس أنهم مضحكون ؟ "
ــ تعال
ذهبت إلى من دعانى
ــ اعقل وقل لنا الحقيقة
" الرجل جاد جداً .. هئ هئ .. "
مرة ثانية لاحظ أننى أضحك .. جذبنى من ياقة قميصى ..
ــ ماذا بك يا (...)
= لاشئ
ألح علىّ سؤال .. ماذا يعلق هؤلاء فى الشتاء ؟ برتقال ؟
ــ أحضر العدة
أصدر الأمـــر صاحب أكبر قطف عنب فى الثلاثـــــــة .. خرج أحد الاثنين الآخرين .. وعاد بالعدة . هـــــراوة .. ســـلك كهرباء .. حبل .. كرباج .. شاى وســـكر وموقـــد صغـــير .. ووضعهم عند قدمى !
ــ مارأيك ؟
= أهذا لى ؟
امتدت يد إلى الكرباج
ــ عرّه
عرّانى
طراخ .. طراخ .. تقع الضربـــات أينمـــا تقـــع .. علـــى ظهرى .. على رأسى .. على أى مكان لا يهم .. الأمر ليـــس هزارًا .. رغم عناقيد العنب !

ــ ماذا تريدون ؟
= أتستهبل ؟
ــ لا .. أبدا والله العظيم .. انتظروا .. كفى !
هم لايتوقفون !
ــ سأفعل ما تريدون
أشار كبيرهم بالتوقف ..
ــ ماذا تريدون ؟ (سألت فى فزع)
أشار مرة ثانية بالاستكمال .. وجلس يصنع لنفسه شايا !
قطوف العنب تهتز فوق أكتافهم .. عينـــاى لا تريـــان إلا اهتزاز حباتها ..
" أهم مجموعة من المخبولين ؟! "
هســيس الماء فى البراد جعلهم يتوقفــون .. بــدأوا فـــى صـــب الشـــاى .. وجلســوا فى ركن الحجرة يســـــتريحون على كراس خشبية لم ألحظها إلا الآن .. بينما تقرفصــت أنـــا فى وســط الحجرة ..
لم تعد عناقيد العنب تضحكنى .. هى علامـــة الخلـــل .. ترى ما الذى فعلته وأغضبهم ؟ آه لو أعرف !

فتح الباب فانتفض الثلاثة .. تحاملت على نفســـى حتـــى وقفت .. دخل حامل العنقـــود الأكـــبر .. رفعـــوا أكفـــهم بالتحيـــة ففعلت .. هؤلاء الناس لايجب اغضابهم أبدا ..
ــ ألم تنتهوا بعد ؟
= إنه يتغابى
ــ ستعترف .. شئت أم أبيت ! (قال حامل العنقود الأكـــبر موجها حديثه لى)
= والله العظيم أنا أريد أن أعترف
ــ و ماذا يمنعك ؟

= أنا لا أفهم ما الذى تريدوننى أن أعترف به ؟

ـ اتفو ! تناثرت بصقته على وجهى ..

= أنا لا أستهبل .. والله العظيم لا أستهبل

أشار لهم بطرف سبابته .. ربطوا ذراعىّ خلف ظـهرى .. وربطوا قدمىّ فى بعضهما .. الكهرباء تنفض ذرات جسـدى .. إبرٌ حارة تنطلق فى عروقى .

ـ سأعترف .. تشاجرت مع زوجتى أمس ..

ركلات توجع جنبى .. هذا الاعتراف لا يرضيهم ..

ـ سأخفض صوت المذياع .. سأزور أمى ..

الكهرباء تزلزلنى ..

ـ القمامة ! نعم القمامة .. أنا قذر.. لن ألقيها من النافذة .. لن أشخرَ وأنا نائم .. لن أتأخر فى الحمام

اعترافاتى لا ترضيهم ..

أشـار حامل العنقود الأكبر بسـبابته فتوقفوا .. لا أقـوى على فتح عينى .. مكوم بلا أى قدرة على الحركة .. تعبـان .. أريد أن أنام ! ركلة فى جنبى .. ركلة أخرى .. وثالثة ..

ـ رد يا (...) .. أم تريد الكهرباء ثانية ؟

أصدرت أنينـاً .. أدرت رأسـى بقـدر مـا اسـتطعت تجـاههم .. حـامل العنقود الأكبر يدخن .. الثلاثة يحيطـون بى ! فكّ أحدهم قيودى ..

ـ اجلس

لم أسـتطع .. رفعنى أحدهم من تحت إبطى .. جرّنـى إلى الجدار ورطمنى فيه ليسندنى ! الأربعة أمامى .. لابـد أن أفهم .. لا .. ليس هذا وقت انهيار .. لابد أن أتماسك .. نعـم ماذا فعلت ؟ نعم .. نعم .. سأتذكر .. مازالوا أمامى .. قطـوف العنب فوق أكتافهم .. العنب .. العنب .. نعم هو العنب !

ـ سأعترف يا فخامة حامل العنقود الأكبر

نهض الرجل .. عناقيد العنب على كتفيه نقصت حباتـها .. استندت بكفى للأرض محاولا التماسك .. ففعصت بعض حبـلت العنب

ـ تذكرت جريمتى

قلتها ببطء وصعوبة

= انطق .. أوَتَظُننا متفرغون لك ؟

ـ أنا مجرم .. لن أفعل هذا ثانية .. لن آكل العنـب بعـد اليوم أبداً !

= العنب ؟

ـ هو عنبكم وحدكم

يضحك حامل العنقود الأكبر

ـ والله ما كنت أعلم .. كنت أظن أنكـم تعلقـون أشـياءً أخرى !

= ماذا يقول هذا الأبله ؟

ينظرون إلى بعضهم ويبتسمون

ـ عندكم كل الحق .. ماذا سيكون الوضع إذا أكل النـاس كل العنب وصنعوا منه الزبيب والمربى والعصير ؟!

= ما لنا والعنب يا أهبل ؟

ـ مالكم والعنب ؟ بماذا إذن ستزدان أكتافكم ؟ أنا والله مـا كنت أعلم

= أوترى عنباً على أكتافنا ؟

ـ إنه لم يخلق إلا لكم

= العنب ؟

ـ نعم .. أكثر الله من عناقيدك يا فخامة حـامل العنقـود الأكبر !

= إذن فهذا (وأشار إلى كتفه) عنب !

ـ عنب طازج لن يتحول إلى زبيب أبداً
= زبيب ؟!
ـ نعم زبيب ! أطال الله مدة خدمتك يـــا فخامـــة حـــامل العنقود الأكبر

= ما الذى حدث له ؟
ـ لوثة .. مجرد لوثة .. سيفيق منها حالا

أخذونى لأفيـــق .. وفى طريقى كنـــت أفعـــص بحذائـــى حبـــات العنب المتناثرة هنا وهناك !

أكتوبر ١٩٩٨

فهرس



رقم الإيداع
٢٠٠٠/١٦١١٢
الترقيم الدولى
977 - 08 - 0967 - 5